الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

جامعة بجاية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة

الهويـــــة والتاريخ في روايـــــة "أنا وحاييم" للحبيب السائح

مذكرة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص:

أدب عربي حديث ومعاصر

إعداد الطالبين

_ عبد الكريم سيلة

_ عبد النور تفوكت

إشراف الأستاذ

_ سعيد إباون

السنة الجامعية:

2020/2019

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

شكروتقدير

قال تعالى "لئن شكرتم لأزيدنّكم" "سورة إبراهيم" "الآية 7"

وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " الشكر زينة الغنى "

الشكر لله عز وجل الذي وفقنا وأعاننا

والحمد لله الذي يسر لنا أمورنا سبحانه نعم المرشد والمعين

نتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الفاضل "سعيد إباون" على حسن التوجيه

والنصح والثقة التي منحنا إياه

ونتمنى أن يجعل الله هذا العمل في ميزان حسنات الأستاذ

وأن يجعله الله في خدمة العلم ورمز عطاء للطلبة والأدب العربي.

الإهداء

إلى معلمتي الأولى في هذه الحياة أمي الغالية

إلى سندي الدائم الذي لم يخذلن يوما أبي الكريم

إلى تاج رأسي أخواتي صونية وسهام وأزواجهن وأولادهن وعائلة أزواجهن

وإلى أختي الصغيرة منال

إلى أفضل صديقة لي في هذه الحياة والتي معرفتها خير من معرفة ألف رجل

والتي تقاسمت معي مشقة هذا البحث من البداية حتى النهاية ليدية

وإلى زميلتي نعيمة التي لم تبخلني بأي شيء

إلى أخي الذي تقاسم معي مشقة هذا البحث عبد الكريم

إلى كل من ساهم في نجاحي من قريب أو من بعيد

وإلى كل أصدقائي وأقربائي وعائلتي الكبيرة

إلى الأستاذ الذي أشرف على البحث سعيد إباون

لك مني كل الاحترام والتقدير

– عبدالنور تفوكت –

الإهداء

أهدي هذا العمل

إلى الشخص التي حبها يملأ كل الوجود أمي الغالية

إلى الذي ضحى ومزال يضحي من أجلي أبي الغالي

إلى أخي الوحيد هاني

إلى أختي لامية وزوجها وعائلته

إلى كبد روحي ابن أختي الصغير أمير

إلى صديق دربي والذي تقاسم معي عناء هذا البحث عبد النور

وإلى كل من له الفضل علي من قريب أو من بعيد

إلى الأستاذ سعيد إباون الذي رافقنا طيلة هذا البحث لك كل

التقدير مني يا أستاذي الفاضل

- عبدالكريم سيلة -

مقـــدمة

تعد الهوية والتاريخ من القضايا الشائعة والمتناولة بكثرة في النصوص السردية، ولأن الرواية هي الفن والجنس الأدبي الذي فيه المرونة اللازمة التي تمكنه من الخوض في شتى المواضيع ودراسة القضايا جميعها، فكاتب الرواية يسعى إلى تحليل الموضوع ودراسته من كل زواياه ويحاول كشف المستور، لأن الكتابة الروائية لا حدود لها.

تعد الهوية من أبرز القضايا التي عرفتها المجتمعات بمختلف أجناسها ومللها، وهذا منذ القدم وإلى غاية يومنا هذا، فالهوية مرجع رئيسي لكل أمة ومقوم مركزي لها، فإثباتها وإبرازها للعلن أمر ضروري يسمح باستمرار الفئة البشرية.

بالإضافة إلى الهوية، هناك عنصر التاريخ الذي تتغنى به كل الأمم والشعوب، فكل المراحل التاريخية التي تتشكل عبر الزمن لديها وقع على حياة الفرد والمجتمعات، فحتى لو تغيرت الظروف الاجتماعية، إلا أن التاريخ يبقى صامدا أمامها ويحاول التغلب عليها.

وكلما كان الكاتب قريبا من الواقع، متعايشا مع قضايا قومه ووطنه، ظهر ذلك في أعماله الأدبية والفنية، وكان لزاما عليه تسخير قلمه وأدبه لخدمة شعبه ووطنه، وكلما زادت التجربة الشعورية أكثر كان الإنتاج الأدبي أصدق، وهذا ما لمسناه في رواية الحبيب السائح الموسومة: "أنا وحاييم" للحبيب السائح"، والتي يعد فيها تمازج الهوية والتاريخ من أبرز القضايا التي تناولتها الرواية وخاضت في تفاصيلها. ومن أجل هذا آثرنا صياغة عنوان البحث كالآتي: " الهوية والتاريخ" في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح.

ومن خلال هذه المذكرة حاولنا الإجابة على بعض الإشكاليات الجوهرية المتعلقة بالموضوع ومنها:

_ هل الحبيب السائح كاتب للرواية التاريخية أم أنه يحاول تصحيح التاريخ من خلال أعماله الأدبية؟

_ كيف كان موقف الحبيب السائح من اليهود الذين استوطنوا الجزائر؟

_ ما هي الأسباب التي أدت بالحبيب السائح لاختيار فترة الثورة للحديث عن اليهود والهوية الجزائرية ككل؟

لقد قمنا باختيار هذا الموضوع، نظرا للأزمات التي تعرفها قضية الهوية والتاريخ في مجتمعاتنا العربية عامة والجزائر خاصة، ومن الاعتبارات الأخرى التي حفزتنا على تناول رواية "أنا وحاييم" بالدراسة والتحليل، أنها تنتمي إلى الأدب الجزائري، ولا شك أن هذا الأدب أولى بالعناية والدراسة والاهتمام من أي أدب آخر.

وكان المنهج التاريخي هو المنهج الأنسب لتقصي قضية الهوية والتاريخ، والكشف عن حيثياتها داخل هذا النص الروائي، كما قمنا، فضلا عن هذا، بالاستعانة ببعض آليات المنهج الاجتماعي حين سعينا لاستخراج بعض مقاصد تناول الهوية وحدّها في ضوء التاريخ عامة وتاريخ الثورة التحريرية بشكل خاص، ولقد اعتمدنا في بحثنا على الخطة التالية:

جاء بحثنا في مقدمة وفصلين وخاتمة، قسمنا الفصل الأوّل الموسوم:"السرد والهوية" إلى مبحثين، وتعرضنا في المبحث الأول الموسوم: " تقنيات السرد عند الحبيب السائح" إلى قضايا: التجريب، وخصائص الكتابة السردية، والتاريخ في أعمال الحبيب السائح. وأما المبحث الثاني الموسوم: "الهوية بين التحديد واللاتحديد"، فتناولنا فيه مفهوم الهوية، ومنظور الهوية قبل الحداثة، والحداثة والهوية، والهوية الفردية والجماعية، والأدب والهوية، والإقصاء والإرغام، والاغتراب.

وأما الفصل الثاني الموسوم:" التاريخ وحدّ الهوية في رواية "أنا وحاييم""، فينقسم بدوره إلى مبحثين، تطرقنا في المبحث الأول المعنون:" التاريخ في رواية "أنا وحاييم"" إلى قصة اليهودي حاييم، واليهودي حاييم والأنساق المضمرة، وتاريخ اليهود ومدى تأثيرهم في الجزائر،

والإشادة بدور المرأة، والجدة رمز للتاريخ، والتحدي. وأما المبحث الثاني الذي سميناه:" الهوية في رواية "أنا وحاييم""، فعالجنا فيه تجلي عناصر الهوية في رواية "أنا وحاييم"، والتشابه الثقافي، والحداثة، والجماعة والفرد، والإقصاء، والشعور بالاغتراب.

وقد اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع ومن أهمها نذكر: الحبيب السائح "أنا وحاييم"، أليكس ميكشيللي " الهوية"، هارلمس وهولبورن "سوشيولوجيا الثقافة والهوية"، صلاح صلاح "سرد الآخر"، أحمد حسن سميح اسماعيل " اليهود في المغرب العربي".

لا يمكن الجزم بأن البحوث الأكاديمية خالية من الصعوبات والعراقيل، فعلى الرغم من رغبتنا الملحة في المواجهة، إلا أنه واجهتنا عراقيل، وأول هذه العراقيل هي صعوبة التحكم في قضية الهوية والحسم في مفهوم نهائي لها، وهذا راجع إلى الانزلاقات المتواصلة التي يعرفها العالم العربي عامة والجزائر على وجه الخصوص. وأما ثاني العراقيل فمتمثل فيما نواجهه في ظل جائحة فيروس كورونا المستجد الذي بدوره عطل كل مساعينا والحد من التواصل بيننا كطالبين وبين الأستاذ المشرف.

لا تفوتنا الفرصة بأن نتقدم بالشكر الجزيل وبكل عبارات التقدير والاحترام إلى الأستاذ الفاضل "سعيد إباون" الذي لم يبخل علينا بزاده الفكري والمعرفي والذي ساعدنا طيلة مشوارنا الدراسي.

وفي الأخير، نقول بأن هذا البحث عبارة عن محاولة بسيطة نتمنى أن تكون جادة ونحقق من خلالها نوع من الشمولية في البحث. ويسعدنا كثيرا أن نكون قد ساهمنا في تقديم دراسة جديدة حول قضية التاريخ والهوية في الأدب الجزائري.

الفصل الأوّل:

السّـــــــرد والهويّة

المبحث الأوّل:

تقنيات السّرد عند الحبيب السّائح

1. التجريب في الكتابة السردية عند الحبيب السائح:

تعد ظاهرة التجريب بمثابة قفزة نوعية نحو المجهول، حيث قام بها العديد من الروائيين الجزائريين، نذكر منهم الحبيب السائح على سبيل المثال، وذلك بغية منهم لإنتاج أشكال أدبية جديدة، وتجسد هذا الانزياح عن المألوف في كتابات روائية جديدة لتتماشى مع روح العصر، وهذه التغيرات في ميدان الكتابة الروائية، كانت عبارة عن زبدة تمخضت عن الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية التي يعيشها المجتمع الجزائري.

هذه التحولات وأخرى دفعت بالحبيب السائح وآخرون إلى اكتشاف أنماط جديدة في الكتابة، ودخول غمار التجريب، وتجاوز المألوف في السرد الكلاسيكي القديم "وفي هذه الحال أو تلك يبقى السؤال معلق عن مصير تجربة في الكتابة لمشروع قراءة منتجة لنص جديد يحمل مصداقية فنية وجمالية تكون نبراسا يدق في عالم النسيان "[1]، فهذا التجريب عبارة عن اكتشاف آليات أخرى للكتابة وأساليب وأنماط جديدة للتعبير، ولا يعني مقاطعة التراث السردي القديم، لقد استطاع الكتاب الجزائريون التخلص من الكتابة على نهج القدامى، والسير قدما لاكتشاف وتبني آليات جديدة تظفي على النص الروح الجمالية والفنية " تلخيص تجربة الجزائر في مجال الكتابة السردية التي استطاعت أن تبني لنفسها بنيات جمالية وفنية تعمد على نبذ المألوف وتجاوز المعتاد "[2].

يمكن القول أن السائح استطاع زعزعة السائد، من خلال طرح أسئلة جديدة وكذا بحثه عن صيغ جديدة وهذا ضمن الخطاب وأفكار ووعي جمالي جديد.

[1]– محمد تحريشي، رحلة الكتابة كتابة الرحلة، نحو آفاق مغاربية، دراسات وإبداعات الملتقى السابع، دار الأمل للنشر، تيزي وزو، دع، 2004، ص41.

[2]– المرجع نفسه، ص41.

الرغبة في التجديد، هي النقطة المهمة التي نمت الرغبة لدى السائح وغيره في تطبيق تقنية التجريب في الكتابة الروائية " والرواية التجريبية هي كبرى تجارب الإبداع العربي في العصور الحديثة، وصانعة الوعي التاريخي بمسيرته، وأكبر مظهر لاشتباكية الخلافة بحركة الوجود "[1]، لقد ساهمت تقنية التجريب في إعطاء النص روح جديدة وثوب جديد الذي يتناسب مع الواقع، كما ساهمت في الربط والدمج بين القديم والحديث في قالب إبداعي.

لقد تهافت الروائيون العرب حول تقنية التجريب، مما يمكن الإقرار بأنها موضة في الكتابة الروائية الحديثة، ولكن السائح ليس كغيره من الكتاب فهو لا يكتب بتجريب وإنما كتاباته عبارة عن مشروع تجريبي بحد ذاتها " ... لا أكتب بتجريب ! أكتب، كما ذكرت سابقا، تأسيسا على مشروع، وهو التجريب بحد ذاته، إنها ليست مغامرة، بل تحد أن تفعل ذلك وأنت تدرك، مسبقا مخاطر الفشل ! فأمام موضة ما يسمى "بالتجريب" ونمطية المحاكاة بين الكتاب العرب أنفسهم ومن غيرهم "[2].

لم يدخل السائح غمار التجريب من الأبواب التي دخلها غيره ولكن لديه طريقة في الكتابة، مما يمكنه أن يكتسب أسلوب خاصا به، حيث استطاع أن يعرف كيف يقوم باستغلال مجموعة من العناصر المشكلة لتقنية التجريب (توظيف التراث، توظيف التاريخ، المسكوت عنه) وهذا لاكتشاف حقائق أخرى غير تلك التي يعرفها القارئ " استحضر المؤلف في روايته تاريخا حيا، ولم يتردد في كشف بعض الحقائق المتعلقة بكواليس الانتخابات وفضح بعض الأسماء، جنح إلى استعمال اللغة العامية في بناء خطابه الروائي ... يلاحظ القارئ أن الكاتب قد وظف في روايته مادة شعبية غزيرة (الأمثال، الأغاني، التبريحة) وقد

---

[1]– سهام ناصر، رشا أبو شنب، مفهوم التجريب في الرواية، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، مج 36، ع، 5، 2014، ص313.

[2]– محمد بوكرش، محراب التشكيل، الروائي الجزائري الحبيب السائح لعكاظ: حر في اختياراتي ... ومتحرر ضرورات النشر، 2016، http://www.okaz.com

استغل هذه المادة في تعرية المجتمع والكشف عن عيوبه، هاجم الكاتب فئة المجاهدين واستثنى منهم المجاهدين الشرفاء والمناضلين والمخلصين"[1]، ويتضح لدارس هذه الأعمال أن السائح قد اشتغل على هذه العناصر التي تجتمع كلها في تقنية التجريب الروائي.

1.1. توظيف التراث:

الرواية فن أدبي كغيره من الفنون الأدبية الأخرى، لا يمكن لها أن تنطلق من العدم، فكان يجب أن تكون لها مرجعيات ومنطلقات قد نهلت منها مسلكها، ومن بين هذه المرجعيات توظيف التراث، وقد أعاد الكتاب استقراء التاريخ وتوظيفه توظيفا مغايرا يعالج أوضاع المجتمع الجزائري، وهذا إيمانا منهم بضرورة الانفتاح على التراث والعودة إلى الأصل " ليس من أجل الإنغلاق على الذات، وتقديس الأجداد، وتمجيد الماضي، والحنين الرومانسي إلى إعادته، بل لمساءلة الذات، من خلال مساءلة الماضي والوقوف على الخصائص المميزة والهوية الخاصة "[2]، وتبقى هذه المساءلة وطرح الاستفسارات من بين أهم المميزات التي تميز بها الحبيب السائح، فهو لا يجيب أثناء الكتابة وإنما يقوم بطرح الأسئلة.

1.1.1. التراث الديني: يعد التراث الديني من المآخذ الهامة والمرجعيات الأساسية التي استفاد منها الكتاب الجزائريين على غرار الطاهر وطار، واسيني الأعرج، وهذا هو حال الحبيب السائح الذي وظف التراث الديني لكون المجتمع الجزائري يأخذ في قوامه الشريعة الإسلامية التي هي ركيزة من ركائزها الأساسية.

---

[1]– عبد العالي بشير، النظام العاملي في رواية "زمن النمرود" للحبيب السائح، جامعة تلمسان، http://www.benhdouga.com

[2]– محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002، ص15.

1.1.1.1. الاعتقاد ببركة الأولياء الصالحين: ويقصد بهذا تلك الزيارات المتتالية إلى الأضرحة للتبرك، والدعوة إلى أصحاب تلك القبور بنية قضاء الحاجة.

2.1.1.1. حتمية القضاء والقد: تأثر المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات الإسلامية بقضية القضاء والقدر، وقد ساهم في تفعيل هذه الحتمية، الزوايا الإسلامية، وكتاتيب تعليم القرآن التي كانت بدورها ترجع حتمية الاستعمار الفرنسي إلى القضاء والقدر.

2.1.1. التراث الشعبي: لقد ساهم توظيف التراث الشعبي في أعمال الحبيب السائح، في إضفاء الجمالية والشعرية على أعماله الروائية، حيث سعى إلى توظيف التراث الشعبي بنوعيه المادي والمعنوي، وهذا ضمن إطار تاريخي يضمن نجاح هذا التزاوج، وقد تمثل التراث المادي في الأماكن العريقة، الألبسة التقليدية، المأكولات، العادات والتقاليد وغيرها من التصرفات والطقوس، فيما تمثل التراث المعنوي في الأمثال والحكم، مزج اللغة العامية مع اللغة الفصحى ضمن الخطاب السردي، وهذا الذي تجسد من خلال بعض الكلمات والمفردات الشعبية التي توحي بثقافة وعراقة المنطقة والحضور التاريخي لها.

التراث الشعبي إذا هو عبارة عن الموروث الثقافي والحضاري للأمة، ويمكن اعتباره بمثابة خلاصة عن حياة وخبرات ومعارف أسلافنا القدامى.

2.1. توظيف التاريخ:

لم يكن توظيف التاريخ واستثماره حديث النشأة، فقد وظفه العديد من الروائيين الكبار، وقد تمثل هذا التاريخ في التاريخ العربي الإسلامي "عرس بعل" عند "الطاهر وطار" مثلا، والغاية من هذا الأمر نبش التاريخ وإعادة استقرائه، ولكن لم يتوقف عند هذا الحد، ولكن الحبيب السائح أراد من خلال مساءلة هذا التاريخ الكشف عن بعض الأوجه المظلمة أثناء الثورة، وحتى العشرية السوداء، وكذا رد الاعتبار والحديث عن ما هو مسكوت عنه تاريخيا

إذ "يبدو التاريخ رهانا كؤودا على الروائي العربي، الذي يجد نفسه في موضع تجاذب بين تيارين، أحدهما دينه وفنه وهو الرواية وفنون تخييلها، وثانيها التاريخ وهو أحد همومه وإن لم يكن أحد علومه، خاصة وأنه يشهد في إطلاعه على هذا الموضوع معاناة المؤرخين أنفسهم وخباياهم بعمد أو غير عمد، لينتهي الكل إلى مسألة أن الكتابة عن التاريخ مجازفة غير مضمونة العواقب، فكيف بمن يتسلح بالتخييل الأدبي أن يكون وفيا للحقيقة التاريخية "[1]. فالسائح يقوم بمساءلة التاريخ وهذا نظرا للشكوك التي تراوده حول هذا التاريخ.

يسعى دائما إلى الحفر عميقا للوصول إلى الحقيقة التاريخية المطلقة " في روايته الأخيرة، أصبح الروائي الحبيب السائح يحفر عميقا في ما يبدو مسلمات، وهي ليست كذلك وكأن تاريخنا الوطني لم يكتب حتى الآن "[2]، ومثل هذه الأعمال لا ترى النور نظرا للمواقف السياسية والإيديولوجية، وكذا الحديث عن ما هو محظور، وهذا ما يؤرق السلطة الحاكمة، فتدعو بدورها إلى مقاطعة مثل هذه الأعمال، ومنه فإنه يمكن التلاعب بجنس النص والحقائق التاريخية وتغييرها حسب الأهواء وما يقتضيه الخيال الإبداعي لدى الكاتب، فيصبح العمل الإبداعي وثيقة تاريخية فقد نكهته الأدبية، وهو ما حدث عند جورجي زيدان*. ولكن عندما يتعلق الأمر بالحبيب السائح فهذا مختلف، حيث تمكن من الجمع بين الماضي التاريخي والواقع الاجتماعي المعاصر، مع إضفاء عنصر الخيال والتشويق.

---

[1]– محمد الأمين بحري، تمثيل التاريخ في الرواية الجزائرية المعاصرة، المجلة الثقافية الجزائرية، 2017، https://www.thakafamag.com

[2]– واسيني الأعرج، حاييم أو سيرة اليهودي الطيب، القدس العربي، 2018، https://www.alqds.com

*جورجي: زيدان الذي كتب الرواية التاريخية ولكنها فقدت حسها الأدبي، حيث أن قارئ هذه الأعمال يحس وكأن زيدان أراد أن يؤرخ لهذه المراحل ويوثقها تاريخيا وهذا أفقد هذه الأعمال الأدبية نكهتها الأدبية ويمكن تصنيفها ضمن الأعمال التاريخية.

3.1. المسكوت عنه:

إن الكتابة الروائية، فضاء للحرية المطلقة يطلق الكاتب من خلالها العنان لأفكاره وخياله، لكي يعبر عن كل ما يجول بخاطره، وهذه الحرية يمكن لها أن تصل إلى حد المساس بالخطوط الحمراء التي يقف عندها العرف أو الدين أو حتى السياسة المنتهجة لدى الدولة، ومنه فقد اختار الروائيون الجزائريون دخول هذا المضمار التجريبي، وهذا ضمن خرق هذه الحواجز ومثل هذه الكتابات تميزت بالجرأة في التعبير أثناء الخطاب وقامت بتعرية الشخصيات الروائية من الحواجز مما يسمح لها بالتعبير عن ما فيها من كبت وأحاسيس، وكل هذه القضايا تتعارض يا مع الدين أو العرف الاجتماعي أو الفكر السياسي، والغرض من هذا التجريب (الكتابة في المسكوت عنه) تقديم أعمال فنية إبداعية جديدة مغايرة ومخالفة للكتابة السردية التقليدية.

4.1. الدين:

يعد الدين من الخطوط الحمراء والأمور المحظورة في كل المعتقدات، (الإسلام، المسيحية، اليهودية) حيث يسعى الروائي إلى عدم الاقتراب من هذه المسألة نظرا لقدسيتها، ولأن التجريب ظاهرة ديمومة الحركة وأغلب أهدافها الغوص في هذه الأمور، والبحث عن الجديد، والتجديد في التفكير، ومنه أصبح لزاما على الروائي أن يدخل هذا المجال، وبالضرورة سوف يحدث بينه وبين الدين تصادم عنيف، ومنه بالضرورة ثورة رجال الدين والمجتمع المدني على هذا الكاتب، وعدم الخوض في العنصر الديني ليس فقط الخوف من رجال الدين وإنما من طرف السلطة الحاكمة أيضا، فهي تمنع أي تنوير للعقل، وكذا الدراسات الموضوعية للدين لأنه " ليس من مصلحة الطبقات الحاكمة في بلادنا دراسة الدين موضوعيا، ليس من مصلحتها تنوير أشد للناس إيمانا، لأنها أقل الناس إيمانا "[1]، فإذا حدث

[1]– بوعلي ياسين، الثالوث المحرم، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1978، ص22.

هناك دراسة موضوعية للدين واستقراء حقيقي له، يكون هناك تغييب لمصالحها الخاصة، ولهذا تسعى السلطة الحاكمة إلى تضليل الشعوب عن طريق الاستغباء الديني، لكي تفرض سلطتها، ولعل أحسن مثال على ذلك ما كانت تقوم به الزوايا القرآنية، في ضل الثورة حيث كانت ترجع حتمية الاستعمار الفرنسي إلى القضاء والقدر، كما تقوم السلطة أيضا بشراء ذمم بعض الأئمة والفقهاء لإصدار مجموعة من الأحكام الفقهية والتشريعية لخدمتها.

هذه الأسباب وأخرى جعلت الروائي يكتسب القوة والجرأة في التحدي لكي يظهر بعض الحقائق التي يتم إخفاؤها وراء سلطة الدين، وكذا دعوته إلى حرية المعتقد واحترام الشعائر الدينية للآخر.

تعتبر قضية اليهود من الطابوهات والقضايا المحرمة الحديث عنها، وهذا لفترة زمنية طويلة والتي تمتد إلى أيامنا، رغم أن اليهود هم مجموعة بشرية وطائفة دينية، حالهم كحال سائر المجتمعات.

ويعتبر الحبيب السائح من الروائيين القلائل، الذين عالجوا قضية اليهود ومشكلة الهوية، فقد أظهر صور التعايش بينهم وبين المسلمين وكذا قيمة التسامح الديني، لم تكن اليهودية حديثة النشأة أو حركة ظهرت مع المستعمر الفرنسي وإنما تعود إلى أزمنة بعيدة حيث " كانت اليهودية قوية الانتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الإسلام مباشرة، وكانوا يتكلمون البربرية، ويعيشون في جبال أطلس في منطقة الأوراس حاملين نفس خصائص السكان المسلمين المستوطنين في نفس المناطق من عهود قديمة، ويفسر انتشار اليهودية بين قبائل البربر في الجزائر في ضوء عهد الكاهنة وهي ملكة بربرية كانت تدين باليهودية "[1]، وهذا ما يثبت الجذور المتغلغلة ليهود الجزائر الذين كانوا يعيشون مع غيرهم،

[1]– أحمد حسن سميح إسماعيل، اليهود في المغرب العربي والحركة الصهيونية في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2016، ص66.

حيث تقاسموا المناطق وتشاركوا في العادات والتقاليد وكانوا يتكلمون اللغة نفسها، ومنه يمكن القول بأن اليهود يشكلون جزءا مهما من مكونات هذا البلد " اكتشف جزء من اليهود في الجزائر خصائص الحضارة العربية، وأصبحوا عربا، لاسيما قبل دخول الاستعمار الغربي الذي فرنس الكثير من يهود المناطق الشمالية في الجزائر "[1].

فضلا عما سبق فقد تأثر اليهود بالعرب الموجودين في الجزائر، نتيجة الاحتكاك الذي كان موجود بينهم من خلال التجاور وكذا العامل التجاري الذي يعرف به اليهود، بالإضافة إلى ظاهرة التعايش السلمي الذي يعتبر أحد العناصر الهامة التي أبقت على اليهود في هذه المنطقة لمدة طويلة من الزمن.

رغم أن اليهود والمسلمين انصهروا في بعضهم البعض، إلا أن هذه الحال لم تدم طويلا، فبمجرد دخول المستعمر الفرنسي للجزائر، قلب الموازين وعرفت هذه العلاقة القائمة بين اليهود والمسلمين الجزائريين نوعا من السلخ والتشتيت، وظهرت كل أنواع العنصرية والتعصب الديني والبحث عن الهوية، وهو ما يطرحه الحبيب السائح في كل من رواية ("تلك المحبة"، "أنا وحاييم").

كان موقف اليهود من الاستعمار الفرنسي موقفا ايجابيا، فأغلب اليهود رحبوا بفكرة الاستعمار الفرنسي وهذا من أجل الأخذ بالثأر من العثمانيين الذين كانوا يعاملونهم معاملة خاصة، ويقول أحد الباحثين في هذا الصدد " وازداد ترحيب الجماعة اليهودية في مدينة الجزائر بالاحتلال الفرنسي وارتدوا القلنسوات الحمراء التي كان العثمانيون قد حرمها عليهم،

[1]– أحمد حسن سميح إسماعيل، اليهود في المغرب العربي والحركة الصهيونية في العصر الحديث، ص68.

وجابوا الشوارع راكبين البغال، وكان ترحيبهم بالفرنسيين إما خوفا أو طمعا في العنصر المحتل، وإما كيدا ومكرا بالمسلمين "[1].

لم ينس يهود الجزائر المعاملة الخاصة من طرف الدولة العثمانية وكانوا ينتظرون مجيء الفرص لأخذ الثأر، وكان الاستعمار الفرنسي من بين الفرص التي اغتنمها يهود الجزائر للانتقام، وما زاد حدة الصراع حول قضية الهوية بعد الاستقلال تجنس أغلبية اليهود حيث أراد يهود الجزائر الحصول على الجنسية الفرنسية " لذلك أقرت محكمة النقض بحكم صادر عنها في 24/ 2/ 1862م، منح اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية، وقد رحب حاخام وهران ماهير والحاخام الآخر شارل نبايليون الثالث إمبراطور فرنسا عند زيارته للجزائر سنة 1865م "[2]، هذه الامتيازات مكنت اليهود من التوغل داخل المجتمع الفرنسي، وأصبح لهم ما للمجتمع الفرنسي من حقوق مثل التمدرس، حرية ممارسة المعتقد، وغيرها من الامتيازات التي كان يهدف اليهود للوصول إليها من خلال ترحيبهم بالمستعمر الفرنسي في الجزائر.

5.1. الجنس:

يعد الجنس من الأمور المحرمة وإشكالية متشعبة الفروع، حيث يتداخل هذا الموضوع في الثقافة العربية، وهو من أكثر الموضوعات حساسية ويعد من الطابوهات، وقد وجد الجنس منذ وجود الإنسان " فالجنس يشكل مساحة شديدة الأهمية والإثارة والحساسية في

[1]– أحمد حسن سميح إسماعيل، اليهود في المغرب العربي والحركة الصهيونية في العصر الحديث، ص89.

[2]– المرجع نفسه، ص93.

حياة الكائن البشري "[1]، وفضلا عما سبق فالجنس وظيفة حيوية يقوم بها الإنسان السوي، فلماذا يحرم الحديث عنه؟.

لاقت قضية الجنس اهتماما كبيرا عند الروائيين الجزائريين ومنهم الحبيب السائح، رغم إدراج هذا الموضوع ضمن الثالوث المحرم والمسكوت عنه، ويبدوا أن هذا الأمر لم يكن كذلك عند الغرب، ولعل الأسباب التي جعلت الجنس عند العرب محرم الحديث عنه، أعراف وتقاليد المجتمعات العربية عامة، والمجتمع الجزائري خاصة، وكل هذه العوائق شكلت حلقة لا متناهية لدى الكتاب للخوض في غمار هذا الموضوع، ويدخل ضمن التجريب الروائي، ولعل السمة الرئيسية التي جعلت من الأدباء يلهثون وراء هذه المواضيع، هو سعيهم الدؤوب لجذب القارئ واستمالته، حيث تفطن الأدباء إلى هذه التقنية التي أضحت " وسيلة رئيسية لاجتذاب القارئ فنجد بعض الروايات لا تظم في طياتها أي شيء ذي جاذبية خارج المسائل الجنسية"[2]، بحجة أن الجنس وظيفة يقوم بها الإنسان فيختبئ الأديب وراء هذا القناع لكي يمرر عمله الأدبي الذي يخلوا من كل أنواع الاستشارة والجذب.

يعتمد الكاتب على طرح تيمة الجسد لكي يشد بها الانتباه، وقد أشار صلاح صالح إلى هذا الأمر قائلا " فتعميم إقحام المسائل الجنسية على سياقات الرواية العربية المعاصرة عملية غير واردة، وخصوصا فيما يتعلق بنماذجها المتقدمة، ولكن هذا الإقحام علامة سائرة لبعض الروايات التي تجد تناول الجسد وسيلة وحيدة لجذب القارئ "[3].

لم تكن خصية الجنس واردة في الأعمال الروائية العربية القديمة، ولكن بمجرد ظهور تقنية التجريب أصبح من الضروري ولوج هذا الموضوع، الذي يمكن اعتباره مبتذل لدى

[1]– صلاح صالح، سرد الآخر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص37.

[2]– المرجع نفسه ص ن.

[3]– المرجع نفسه، ص38.

الروائيين، لأن قضية الجنس أصبحت ظاهرة مألوفة في أعمالهم وهو ما يجعلها محل تجريح لدى العديد من النقاد " وما يضع هذه الصعوبة في مقدمة الموضوع أن هذه الروايات أجمع الدرس النقدي العربي على وضعها في طليعة ما تفخر به الرواية العربية، لم يقرأ إلا لسبب ما تتضمنه من مشاهد جنسية "حية" وكثير من قرأها لم يتذكر منها إلا مقاطعها الخاصة بالجسد كموسم الهجرة إلى الشمال "[1]، فأصبحت العديد من الروايات يقترن اسمها بالظاهرة الجنسية المنتهجة بين أبطال الرواية، والقارئ لا يتذكر إلا المقاطع المخلة بالحياء، نظرا لإعطاء أهمية كبيرة لهذا العنصر داخل المتن على حساب مواضيع أخرى .

والحبيب السائح قد عالج هذه القضية في روايته الأخيرة "أنا وحاييم" بتحفظ دون أن يقوم بشرح القضية مباشرة، على عكس ما نجده عن رشيد بوجدرة الذي يتطرق إلى قضية الجنس دون التقيد بأي مرجعية.

6.1. السياسة:

هناك علاقة وطيدة بين الأدب والسياسة، وهذه العلاقة لها الأثر البالغ في الأعمال الإبداعية عموما والنصوص الروائية خصوصا، وبما أن الروائي ابن مجتمعه فهو يتأثر ويؤثر في مجتمعه هذا، من خلال أعماله الإبداعية، فقد كانت النصوص الروائية مصدر نقل ومعالجة الواقع بكل جزئياته فالروائي يسعى إلى تصوير الواقع في أعماله وفق رؤياه ونظرته الخاصة.

اهتمت الرواية الجزائرية المعاصرة بهذا المجال (السياسة)، خاصة في فترة المحنة الوطنية، وبما أن السلطة أو الطبقة الحاكمة فرضت قيودا على الأدباء وضيقت عليهم الخناق، فما كان على الروائيين في هذه الفترة إلا الاستعانة بالتجريب، والثورة على المألوف وتحطيم القديم، وكان عالم السياسة من بين هذه العوامل التي خاض فيها الأدباء الجزائريين،

[1]– صلاح صالح، سرد الآخر، ص38.

ومن بينهم الحبيب السائح الذي لم يتوان إلى التطرق في أعماله في هذا الميدان الذي يعبر فيه عن تذمره الدائم من السياسة التي تنتهجها السلطة الحاكمة في الجزائر.

يرى أحد الباحثين أن أدب السائح هو أدب ما بعد الانتفاضة سيطر عليه التاريخ والسياسة "وما نواجهه في رواية الحبيب السائح، كمثال عن أدب ما بعد الانتفاضات، هو لعنة التاريخ والسياسة والعسكر التي توغلت على الفن فأنهكته، التاريخ عابر، كالسياسة، أما الفن فباق، الجماعات عابرة بصرف النظر عن مدى أهميتها، وما يبقى هو الفرد وعالمه الداخلي الصاخب "[1]، فالدارس لأعمال السائح يكتشف أن قضية السياسة حاضرة في أغلب أعماله وهذا منذ أول أعماله زمن النمرود حيث " بلغ ذروة الجرأة في تعرية السلوكيات القبلية والابتزازية التي تنتهجها سياسة الحزب الواحد، وممارستها القائمة على التزوير لدى كل استحقاق، واعتمادها النفاق السياسي والأحادية وقمع الرأي الأخر "[2].

هذه الجرأة في معالجة القضية السياسية ومنهجها في الجزائر توالى في أعماله الأخرى، "زهوة"، "كولنيل الزبربر" وفي هذا الصدد يصرح الحبيب في نفس المصدر عن روايته "مذنبون، لون دمهم في كفي" " كتبت الرواية شهادة على أمرين: أولهما، سياسة اللاعقاب التي انتهجت تجاه من أجرموا في حق الجزائر، ثانيا تطبيق شعار "المصالحة والوئام" من دون اعتراف مسبق بالذنب، فهما جرمان آخران في حق الذاكرة الجماعية "[3].

حاول السائح من خلال التطرق إلى الميدان السياسي في الجزائر، الدعوة إلى تحرير الذات وإصلاح الواقع الراهن من خلال مراجعة تاريخ المجتمع الجزائري، والسياسة المطبقة عليه، بعد أن كان الشعب يظن أن هذا النظام سيخلصه من كل المعانات، في دولة حديثة

[1]– يزن الحاج، الحبيب السائح: زمن الأدب التاريخي، الأخبار، 2015، https://alkhbar.com

[2]– سعيد خطيبي، الحبيب السائح: "زمن النمرود" الجزائري يحلم بالدولة الحديثة، الأخبار، 2011، https://alkhbar.com

[3]– المرجع نفسه.

وديمقراطية، وفي هذا الصدد يقول السائح: " إن الحلم لا يزال قائما، كما كان عند بداية الاستقلال: أن نعيش في بلدنا مواطنين، وأن نبنيه بتصوراتنا عن الدولة الحديثة "[1]، لقد كانت أمال الشعب الجزائري معلقة في هذا النظام، لتحسين وضعيته المعيشية ولكن لسوء الحظ فقد اصطدم بسلوكيات السلطة المستبدة التي جعلته يتخبط في مشاكل أكثر مرارة من التي عاشها في زمن الاستعمار، وهذا الواقع السياسي المرير هو الذي جعل السائح يحمل على عاتقه هذه المسؤولية ويدخل عالم التجريب في الموضوع السياسي وقضاياه.

2. الكتابة السردية عند الحبيب السائح:

تعد الكتابة عند الحبيب السائح بمثابة مشروع تجريبي، ويطرق من خلالها باب عالم النسيان، وذلك برؤيا مختلفة عن سابقيه، مما يجعله يتمتع بجماليات وفنيات تميزه عن غيره، فقد حاول من خلال أعماله ملامسة الواقع وتغييره من خلال العودة إلى المرجعيات السابقة.

إن الاقتراب من النصوص الروائية التي يقدمها السائح تتميز بنشوة التلذذ والمتعة، وتتطلب قارئا متمكنا يتمتع بالحس النقدي، ولم تكن تجربة السائح في الكتابة وليدة المرحلة التي كتب فيها أعماله، وإنما هي تجربة كانت كامنة في قريحته لمدة طويلة، استطاع أن يبني لنفسه طريقا لخص فيها " تجربة الجزائر في مجال الكتابة السردية التي استطاعت أن تبني لنفسها بنيات جمالية وفنية تعتمد على نبذ المألوف، وتجاوز المعتاد "[2]، لقد استطاع السائح أن ينفض الغبار على العديد من القضايا التاريخية، وإعادة معالجتها وكذا تجاوز المعتاد، من خلال كسر القوالب التقليدية للكتابة السردية من خلال موضوعات جديدة.

---

[1]– سعيد خطيبي، الحبيب السائح: "زمن النمرود" الجزائري يحلم بالدولة الحديثة، الأخبار، 2011، https://alkhbar.com.

[2]– محمد تحريشي، رحلة الكتابة، كتابة الرحلة نحو آفاق مغاربية، دراسات وإبداعات الملتقى السابع، ص41.

سمح الواقع المعاش باكتشاف معالم أخرى في ميدان الكتابة الروائية والطرح السردي "فكان الروائي، رغم البعد التخييلي الذي يطبع عمله بتوخي، ما أمكن تمثيل الواقع والتعبير عنه، لذلك نجد "البعد الواقعي" هو ما يسم عمل الروائي بالدرجة الأولى إنه يخلق واقعا "خياليا" لكن له كل مقومات الواقع "الحقيقي" "[1]، فالروائي رغم إضفاء عنصر الخيال على عمله الإبداعي، إلا أنه مرهون وبدرجة كبيرة بالواقع المعاش، كما يمكن تصوير واقع آخر تخييلي ولكن يقترب إلى التطابق بالواقع وأحيانا أخرى العكس لأنه بإمكان " السرد تحويل عوالم تخيلية إلى حقائق لا يشك فيها أحد "[2]، وهذا راجع دائما إلى الكاتب وطريقته في فن الكتابة، ومنه استغلال المتخيل لخدمة الواقع المعاش ومعالجة قضاياه المختلفة.

مست الرواية الجزائرية العديد من التغيرات، وهذا على مستوى المتن، وهذه الخصائص والظواهر قد أنجزها الجيل الجديد، ولعل من أبرز الظواهر والمؤثرات التي واكبت هذا الجيل، الثورة الجزائرية والعشرية السوداء، وهذا ما أدى بهذا الجيل للاندفاع نحو الكتابة الروائية الإبداعية، والاصطدام بالواقع المرير، الذي يعيشه المجتمع الجزائري، مرورا بالعديد من المؤثرات الأخرى من مثل شعارات السلام، العولمة، التكنولوجيا وثورة الاتصال حيث " أن مسألة الواقع عدلت كثيرا في نمط الواقعية السائدة في الرواية الحديثة، الأمر الذي نتج عنه واقعية جديدة مؤسسة بطريقة غربية على الشكل في يقينية الواقع ذاته "[3].

---

[1]– سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، ط1، 2012، ص39.

[2]– أمبرتو إيكو، تأملات في السرد الروائي، تر، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2015، ص6.

[3]– عبد القادر فيدوح، تأويل المتخيل، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، دط، 2019، ص14.

لم يكن بالأمر الهين الخروج من النمطية المعتادة، لأن الكتابة على منوال القدامى هي التي كانت تستقبل من طرف المتلقي، هذا الواقع سمح بكسر جميع القوالب السردية وتوظيف ظواهر سردية جديدة تتماشى مع روح العصر، وتسمح للكاتب أن يشكل رؤيا جديدة يأخذ موقف على مستوى الإبداع الأدبي الفني ويطرح العديد من التساؤلات التي تحمل مختلف التوجهات السياسية والفكرية والفلسفية، والتي تساعد بدورها على استنطاق العديد من الظواهر المتشابكة في المجتمع.

لعل أهم الأسئلة الجوهرية التي يمكن لنا أن نطرحها هي: هل لهذه الكتابة النهوض بهذه الأمة؟ وهل هذا الكاتب قام بوضع بصمة خاصة به في ميدان الكتابة السردية؟ وهل يمكن أن يحتذى به؟ وفي هذا الصدد تقول الأستاذة آمنة بلعلى: " إن المتتبع لأعمال الحبيب السائح، يلاحظ ومنذ البداية وفي غمرة الشد الإيديولوجي يجسد فرادة أسلوبه من خلال نسج العناوين مجموعاته القصصية ورواياته التالية: البهية تتزين لجلادها، الموت بالتقسيط، الصعود نحو الأسفل، زمن النمرود، ذلك الحنين، تماسخت، تلك المحبة مذنبون لون دمهم في كفي، زهوة، الموت في وهران، يلاحظ حجم الكثافة الشعرية التي تقوم عليها لتشكل إستراتجية تواجه البلاغة القائمة، ولعل هذا الانزياح هو الذي جعله يتميز ببناء جمله بطريقة مركبة، وهذا ما يحدث وقعا جماليا يكون فيه مع القارئ دائما على مسافة ما ويصدمه في كل مرة "[1].

نلاحظ من خلال هذا القول، أن الحبيب السائح قد استطاع أن يجعل لنفسه أسلوب خاص به في ميدان الكتابة السردية وأن يضع بصمته في عالم الرواية العربية، رغم أن شهرته العربية لا تفوق شهرة بوجدرة والأعرج إلا أنه استطاع أن يشكل بأعماله بؤرة نقاش ومحاور دراسية لدى العديد من النقاد والدارسين.

[1]– آمنة بلعلى، فلسفة الكتابة لدى الحبيب السائح، فني– زد، 2018، https://www.fenni-dz.net

ونعتني في هذا المبحث، بشكل خاص بالظواهر السردية العامة التي وسمت أعمال السائح الروائية لنقدم في ظلها بتحليل آخر عمل إبداعي له، ودراسته ألا وهو رواية "أنا وحاييم"، وهذا لا يعني أن هناك ما يسمى بالتناص بين هذه الأعمال الإبداعية وهو ما ينفيه الحبيب السائح عن نفسه، مصرحا بذلك لصحفي جريدة الخبر اليومية " حرصت على أن يكون كل نص من نصوص يحمل بصمته الخاصة به، أو لنقل حمضه النووي، وهذا يستهلك مني جهدا عصبيا مستمرا مؤلما، لك أن تتصور المعركة التي تخوضها من أجل ذلك، حتى لا تقع في التناص مع نصوصك نفسها، فتروح تنوعها على بعضها، ومع نصوص غيرك ليصير ما تكتبه مجرد مسخ "[1]، لقد أكد لنا السائح في هذا التصريح، على أنه لا وجود لظاهرة التناص في أعماله مع غيره من الكتاب، كما تحدى أيضا نفسه بغية منه لإصباغ كل نص من نصوصه بصبغته الخاصة، وهذا ما يبرر الخصوصية الكتابية التي يمتلكها الحبيب السائح في مجال الكتابة السردية.

ساهم الحبيب السائح في إحداث ثورة في عالم السرد الروائي، وهذا ما يستنتجه دارسوا أعماله فقد شكلت أغلب أعماله جدال واسعا لدى العديد من النقاد، وهذا ما يبرز قيمة العمل لدى هذا الكاتب، وقد " صدرت للحبيب السائح مند منتصف ثمانيات القرن الماضي الكثير من الروايات التي أثارت نقاشا واسعا، منها زمن النمرود، تلك المحبة، تماسخت دم النسيان، والموت في وهران "[2]، ولعل الجدل الواسع الذي أحدثته هذه الأعمال يعود بالضرورة والدرجة الأولى إلى خصائص وتقنيات السرد لدى السائح.

[1]– حوار الحبيب السائح لحميد عبد القادر، الرواية أهم تغذية للذاكرة وأنجع وسيلة لمقاومة النسيان، جريدة الخبر، الجزائر، ع، 8654، 2017، ص22.

[2]– الخير شوار، الحبيب السائح: الرواية تجهر بما يسره الناس، الجزيرة نت، 2015، https://www.aljazeera.net

قام الحبيب السائح بكسر خطة السرد وسعى بدوره إلى إبراز الواقعية المحتومة، ومتحاشيا الوقوع في الكتابة التقليدية وهي التسلسل الزمني المعروف (بالتسلسل الزمني للأحداث) " وهذا القطع والاختيار لا يتعلقان أحيانا بالتسلسل الزمني للأحداث، التي قد تقع في أزمنة بعيدة أو قريبة، وإنما هو قطع واختيار تقتضيه الضرورة الفنية، فالروائي ينظم المادة الخام التي تتألف منها قصته ليمنحها شكلا فنيا، ناجحا ومؤثرا في نفس القارئ "[1]، إنه لا يأخذ الحوادث كما هي وإنما يقوم بعملية الانتقاء والاختيار، ولا يعير الأهمية والاعتبار لتسلسلاتها الزمنية وإنما يكتفي فقط بالحوادث المهمة، التي يمكن لها أن تخدم الواقع مع إضفاء عنصر الجمالية والتخييل، مراعاة منه لأفق توقع القارئ.

يمكن اعتبار أعمال السائح بمثابة الغابة التي يتجول فيها القارئ والدارس، لما تحويه هذه الأعمال من معالم تخيلية " فكما التجول في الغابة له طعم اللذة المبهمة والمغامرة والخروج عن العادي المألوف، فالتجول في العوالم السردية التي لا نستطيع التخلص منها ونحن نهفو إلى تشكيل الحياة وفق أهواء لا ترى من خلال السلوك المألوف "[2]، ويعد الخروج عن المألوف في ميدان الكتابة السردية صبغ النصوص بصبغة خاصة، تبعث نكهة خاصة في مجال الإبداع الفني، وكما يمكن وصفها بالكتابة المغامراتية التي لا تقبل المتعارف والمألوف " فإن المتتبع لفعل الكتابة عند الحبيب السائح يشعر بأن هذا الفعل مغامرة نحو المجهول، وهو رحلة متعددة الاتجاهات، ويشعر أيضا أن السائح الحبيب كان دائما السفر

[1]– أمينة يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2015، ص39.

[2]– أمبرتو إيكو، تأملات في السرد الروائي، تر، سعيد بنكراد، ص6.

والتنقل "[1]، وهذا ما يسمح له بتجاوز روتين الواقع وكسر قوانينه الصارمة لأن القارئ يسعى دائما إلى تشكيل عوالم وأفاق تتماشى مع أهوائه وحياته الخاصة.

إن الدارس لأعمال الحبيب السائح، يجدها تنطق من وعيه بحقيقة تاريخ الوطن، وكذا الأحداث التاريخية المختلفة ومخلفاتها على الشعب الجزائري المتطلع إلى الانعتاق والتواق إلى تذوق طعم الحرية، وهذا التطلع نحو غد أفضل ومستقبل زاهر هو ما يسعى السائح لرسم معالمه بالعودة إلى التاريخ الثوري للجزائر، وكذا مأساة العشرية السوداء وهذه السمة بارزة في أغلب أعماله.

1.2. اللغة:

بمجرد الحديث عن السرد يتبادر إلى الأذهان موضوع اللغة، وكيفية استعمالها وخصائصها ودلالاتها، فهذا الموضوع له تأثير كبير على المتون الروائية، وبدون اللغة لا توجد رواية، ومراعاة لهذا الاعتبار قام الحبيب السائح بالاعتناء بهذا الميدان من ناحية التكثيف والبلاغة في الأسلوب، وكذا من ناحية الإيحاء ومنه نستنتج بأنه قد نزح نحو التكثيف والاقتصاد اللغوي في طرح الأفكار، حيث يتحدث الكاتب " لكن على طريقته في التعبير، عما يعرفه كل واحد، مما يضفي طابعا موضوعيا على حديثه، حتى يمكن القول بأن الكاتب نفسه لا بداخله أي شك بخصوص ما يؤكده "[2]، فهذا الطرح الموضوعي لازمه عند قيامه بالعملية السردية، مما جعله يصدق في أفعال وأقوال الشخصيات المجسدة في الرواية.

---

[1]– محمد تحريشي، رحلة الكتابة –كتابة الرحلة نحو آفاق كتابة مغاربية، عبد الحميد بن هدوقة، https://www.benhedouga.com

[2]– ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر، محمد برادة، دار الفكر للدارسات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص77.

وهذا ما يسمح بظهور ثنائيات مركزية ضمن القضايا اللغوية " ظهور ثنائية اللغة الفصحى اللغة العامية وظهور الثنائيات اللفظية أو التضاد اللغوي "[1]، هذا إن دل على شيء إنما يدل على اهتمام السائح باللغة وإعادة معالجتها ضمن النصوص الروائية الجزائرية بسبب المشاكل التي تعاني منها لغة الكتابة في الجزائر، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ بشوشة بن جمعة عن "زمن النمرود" " يتحدث أسلوب كاتب "زمن النمرود" باختيار أولي وهو لغة وسط بين الفصحى والعامية، سواءً كان ذلك في مواقع السرد أو مراكز الحوار، مما جعل الراوي يخاطب المتقبل والشخصيات تخاطب بعضها البعض في مواقع النص بلغة عامية جزائرية صيغت في أسلوب فصيح يجعلها أقرب ما تكون لما عرف باللغة الثالثة أو الوسطى "[2]، هذا التزاوج اللغوي سمح للكاتب الولوج في أنساق لغوية متعددة، جاءت عن طريق قصديته لتشكل مجريات الأحداث على مستوى الأعمال الروائية.

كما يمكن أيضا الإشارة إلى نقطة مهمة في العمل السردي للسائح وهي مساءلة اللغة، فمنذ " ذلك الحنين دخل الكاتب في مشروع تنويري من خلال الهامش لكي يتسامى على لغة الخطابات التي يفككها ولذلك قام بتهميش الصورة التي تستعمل بها اللغة في هذه الخطابات بمخالفة القاعدة المستعملة واللجوء إلى اللغة الشفوية التي تمثل الذاكرة الحية في المجتمع الجزائري مثلها سارد يقلب الموازين بما يشبه الهذيان السردي الذي يضاهي الحماقة الجماعية التي يتخبط فيها المجتمع حد الجنون، ولذلك عمد الروائي إلى استعارة أنماط متعددة من اللغة المحكية في فضاء السوق، وفي حلقة تختصر حالة الانهيار القومي التي وصل إليها المجتمع "[3].

---

[1]– أمينة يوسف، تقنية السرد في النظرية والتطبيق، ص36.

[2]– السعيد بوطاجين، الأشكال السردية عند الحبيب السائح ذلك الحنين: اللغة المسرودة، عبد الحميد بن هدوقة، https://www.benhedouga.com

[3]– آمنة بلعلى، فلسفة الكتابة لدى الحبيب السائح، فني– زد، 2018، https://www.fenni-dz.net

كسر الحبيب السائح هذه القوالب القديمة والأنماط اللغوية المستعملة، ولجأ إلى لغة أخرى وهي اللغة الشفوية وقام بتوظيفها في الخطاب الروائي، وبما أن السائح شغوف بالتاريخ الجزائري ومساءلته فكان لزاما عليه اللجوء إلى هذه اللغة التي تمثل الذاكرة الحية للمجتمع، ويسعى الحبيب السائح في أعماله إلى " تحديث القاموس المستخدم في اللغة، بمواكبة ذائقة العصر ومتداولاته التعبيرية، من دون أن يحيد هذا التحديث عن جمالية اللغة العربية، وعن شفافية التصوير، والحس العاطفي والمبدأ الإنساني، فضلا عن تحديث الرؤى التي تهدف إلى غايات تنويرية مع التسجيل الفني للتأريخ وجغرافية المكان "[1]، وهذه الخصية لا نجدها عند غيره من الروائيين، حيث أن السائح يشد على أهمية التحديث في اللغة والحرص على مواكبتها للعصر.

2.2. السرد بضمير المتكلم "أنا":

اعتمد الحبيب السائح في سرده للأحداث، والوقائع في أعماله الروائية (تلك المحبة، كلونيل الزبربر، أنا وحاييم) على ضمير المتكلم "أنا" وهو الشخصية الرئيسية، التي تتحكم في ضلال الرواية حيث إن هذا التوظيف له دلالة على مستوى الإيحاء وكذا على مستوى البناء السردي لأن " ضمير المتكلم له القدرة على إذابة الفروق الزمنية والسردية بين السارد والشخصية والزمن جميعا، إذ كثيرا ما يستحيل السارد نفسه في هذه الحال، إلى شخصية كثيرا ما تكون مركزية "[2]، فهذا التوظيف لضمير المتكلم "أنا" سمح بذوبان زمن السرد وزمن السارد وامتزاجها بروح المؤلف، مما يحيلنا وكأننا أمام سرد ذاتي فقوة " السرد في هذه الرواية تعطي الانطباع كأننا أمام قص سير ذاتي، بالخصوص أن الإحالات المكانية حقيقية،

[1]– جيلالي بن عيده، ضمير المتكلم والرؤى السردية في ... " الموت في وهران"، الجزائر نيوز، 2013، https://www.vitaminedz.com

[2]– عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1998، ص159.

سعيدة، وهران والعاصمة، لكن سرودا أخرى اتكأت عليها الرواية أخرجت النص من سياق السيرة الذاتية "[1].

الدارس لهذه الأعمال يجد نفسه، كأنه أمام السيرة الذاتية للشخصية الرئيسية وذلك بحكم أن الحبيب السائح ينقل كل جزئيات الحياة ويصورها ضمن عمل إبداعي فالشخصية الرئيسية التي يمثلها ضمير المتكلم "أنا" هي التي تقوم بتحريك الأحداث وقد اعتمد على هذا الضمير لأن " ضمير المتكلم يحيل على الذات، بينما ضمير الغياب يحيل على الموضوع و"الأنا" مرجعية جُوانية، على حين أن "الهو" مرجعية برانية "[2]، فقد حاول السائح الغوص في عوالم الذات ومنجاتها، وذلك لمعالجة الموضوع الذي يفرضه الواقع، لأن المتصفح لهذه الأعمال يلاحظ أن السائح يحاول من خلالها الكشف عن النوايا الحقيقية للشخصية الرئيسية وكذا مساعيها في محاولة إصلاح الواقع الراهن.

يعمل ضمير المتكلم على إذابة النص السردي في السارد " إن "الأنا"، او ضمير المتكلم، يذيب النص السردي في النص، فإن القارئ ينسى المؤلف "[3]، فيركز القارئ على الشخصية الرئيسية، باعتبارها المسيطر والمتكلم الرئيسي في مجرى الأحداث وإن " اختيار ضمير المتكلم ساردا للأحداث، كان قد لجأ إليه الروائي الحبيب السائح لتتحكم الشخصية المحورية الساردة بشكل متقن في سرد الأحداث، وإن كان اختيار ضمير المتكلم يبدو مألوفا في السرد السير ذاتي، فإنه يمنحه فعالية تتحرك ما بين القارئ والحدث المسرود، ليكن

[1]– واسيني الأعرج، حاييم أو سيرة اليهودي الطيب، القدس العربي، 2018، https://www.alquds.com

[2]– عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ص159.

[3]– المرجع نفسه، ص160.

محددا للأفق فيما عداه من الأنواع السردية "[1]، وهذا ما يؤدي إلى انحلال المؤلف الذي لا يظهر في غالبية العمل الإبداعي.

تجدر الإشارة أنه على الرغم من سيطرة الشخصية الرئيسية المتمثلة في ضمير "أنا" في سيرورة الأحداث، إلا أن هذا لا يمنع ولا يقلل من قيمة الآخر الذي يمثل نقطة أساسية في حدوث الصراع، وقد حاول السائح من خلال الضمير الكشف عن خبايا نفسية والتصريح بها للمتلقي، وعلى الرغم أن استعمال الضمير المتكلم في الرواية حديث النشأة بالمقارنة بضمير الغائب "هو" إلا أنه لا يقل عنه أهمية، لكونه ضمير يخدم الحاضر والمستقبل، ويتناسب مع خصوصيات العصر.

3.2. حضور الفنون الأدبية في النصوص الروائية للسائح:

عمد السائح إلى تدعيم نصوصه الروائية، ببعض الفنون الأدبية الأخرى التي هي عبارة عن مكملات سردية تدعم العمل الروائي، ومن بين هذه الفنون استعمال تقنية الرسائل، المذكرة، المنتديات الطلابية، وغيرها من التقنيات التي تعير التقارب وحرارة العلاقة بين الأشخاص، وكذا استعمالها كشواهد للأحداث والمراحل التاريخية المختلفة التي شهدتها الجزائر (الثورة، العشرية السوداء).

4.2. الهوامش:

لا تخلو النصوص الأدبية التي يقدمها السائح من خاصية الهوامش، حيث إن الدارس لهذه الأعمال السردية يجدها تتميز بهذه التقنية ويعد الهامش حسب جرار جينيت " حالة نصية طباعية إيجابية ومرجعية ترتبط بكلمة أو عبارة أو فقرة أو مقطع بطريقة محددة أو

[1]– جيلالي بن عيده، ضمير المتكلم والرؤى السردية في ... "الموت في وهران"، الجزائر نيوز، 2013، https://www.vitaminedz.com.

غير محددة "[1]، حيث ألحق السائح هذه العتبة النصية لإضاءة المتن وتفسيره من كل الزوايا، كما يمكن أيضا من جهة أخرى من منظور أن السارد في أغلب أعماله عالج الفئات الاجتماعية المهمشة ضمن نصوصه الروائية، ومنه فلا يمكن الاستغناء عن الهوامش في بعض النصوص كون الكاتب يقدم من خلالها الشروح والتوضيحات تساعد القارئ على فهم واستيعاب النص وكذا " لتخليص القارئ من الشك بصحة المعلومات عن طريق استخدام الهوامش والإحالات وذكر المصادر في أخر الرواية "[2]، وتمكن القارئ من ربح الوقت حيث لا يقوم بالبحث عن الشروح والإحالات في المعاجم ومصادر أخرى، وإنما يجد كل شيء في نصه الروائي.

5.2. تقنية المشاهد والصور والمعالم الأثرية:

ومن الخصائص التي تتميز بها أعمال السائح، الإكثار من المشاهد، الصور والمعالم الأثرية والأماكن العريقة التي لها دلالة عميقة على مستوى العمل الإبداعي، وهذا الاستعمال لهذه التقنية من طرف السارد لم يكن عبثا وإنما كان استعمال منطقي ومدروس، وله دلالات يمكن استقراؤها من خلال هذه الأعمال، فقد شهدت معظم أعمال السائح هذه التقنية، فقد اشتغل السائح على صورة الصحراء، والمرأة في رواية "تلك المحبة"، صورة الموت في رواية "الموت في وهران" وكذلك صورة الجبل في رواية "كولونيل الزبربر"، وكذلك مجموعة من المعالم التاريخية في روايته الأخيرة "أنا وحاييم" مثل القصبة، كنيسة جان دارك.

[1]– جميل حمداوي، الهوامش في الخطاب الروائي العربي، أهلى منتدى، 2007، https://www.alolymp.niceboard.com

[2]– أمينة يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ص89.

إن السارد في بعض الأحيان لا يعطي الفكرة مباشرة وإنما يوحي ويشير إليها من خلال هذه الصور والمشاهد وكذا المعالم التاريخية والتي يمكن لها أن تعبر أكثر من السارد نفسه لما تحمله من دلالات تاريخية واجتماعية.

6.2. تقنية الوصف:

استعمل السائح تقنية الوصف بطريقة مغايرة عن سابقيه، حيث يقوم بوصف الشخصيات، الأماكن، المظاهر الاجتماعية بطريقة مطولة ومفصلة والغرض من هذا الوصف المطول هو الإلمام بالقضية أو الشخصية من كل جوانبها وإقحام القارئ وجعله يعيش اللحظة، ويجعله أيضا يتعرف على الموصوف بكل جزئياته ولا يمكن للسائح الاستغناء عن هذه التقنية لأن " الوصف تقنية زمنية، يصعب أن تخلو منها رواية ما، فإذا كان من الممكن حسب جينيت الحصول على نصوص خالصة في الوصف فإنه من العسير أن نجد سردا خالصا "[1]، فلا يمكن أن تكون هناك أعمال سردية دون الاستعانة بتقنية الوصف، وهذا بطبيعة الحال لا يعيق العمل الفني الإبداعي وإنما ينميه ويساعده على الترابط .

ركز في وصفه على الجزئيات الصغيرة والدقيقة فالسائح من الذين " ينظرون إلى الأشياء نظرة مغايرة لا تهتم بالسمات الرئيسية التي سبق أن رآها ووصفها الواقعيون، وإنما التفتوا إلى المعالم الصغيرة التي أغفل من سبقهم على ذكرها "[2]، فهو لم يستثني في وصفه أي عنصر وإنما أحاط، بكل شيء " وخلاصة القول، لقد تراوح الوصف في النص الروائي بين فضاءين، فضاء النفس أو الفضاء الداخل Espace Interne وفضاء الخارج Espace Externe يعكس الفضاء الأول العالم الداخلي للشخصية (أفكارها، مشاعرها،

[1]– أمينة يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ص139.138.

[2]– المرجع نفسه، ص142.

حالاتها) أما الفضاء الثاني فإنه يتحدد في المجتمع الذي تعيش فيه الشخصية الساردة "[1] وهذا ما يؤكد قيمة هذه التقنية وكيفية استعملها عند الحبيب السائح.

7.2. تقسيم الأعمال الروائية إلى فصول:

ومن الأمور الأخرى التي يبدو أن السائح قد تميز بها في كتاباته، وهي كيفية بنائه لأعماله السردية وتقسيمها، حيث نلاحظ أن هذه الأعمال مقسمة إلى فصول، أحيانا تكون مطولة وأحيانا أخرى تكون قصيرة، وهذا بحسب الموضوع المعالج في هذا الفصل، وهذا لا يمنع من وجود ترابط وتناغم بين أجزاء هذه الأعمال الإبداعية، وفي نهاية كل عمل سردي يختمه بفهرس يظم كل محتويات الرواية، ونذكر على سبيل المثال لا للحصر رواية "أنا وحاييم" التي تم تقسيمها إلى ثمانية فصول، وتظم في فلكها استقراء الواقع ومعالجة بعض القضايا مع ذكر توجهات السارد وأفكاره.

8.2. الاستذكار والاسترجاع أو (تقنية الفلاش باك):

الفلاش باك من بين التقنيات التي ركز عليها الحبيب السائح، في سرد أعماله الأدبية وهي تقنية أدبية شهيرة يقوم السائح باستخدامها عن طريق وسائل مختلفة (المذكرة، الفلاش ديسك وغيرها) وهذا عند بدء كل قصة من قصصه، والفلاش باك " هو الاسترجاع المبني على انقطاع التسلسل الزمني أو المكاني للقصة أو المسرحية أو الفيلم، وذلك من أجل استحضار مشهد أو مشاهد ماضية، تلقي الضوء على موقف من المواقف أو تعلق عليه"[2]، حيث يقوم بهذه التقنية لتعطيل الترتيب الزمني للأحداث وذلك بتأخير وتقديم حدث معين وبذلك يحقق التأثير الفني على القارئ.

---

[1]– عبد العالي بشير، النظام العاملي في رواية "زمن النمرود" للحبيب السائح، عبد الحميد بن هدوقة، https://www.benhdouga.com

[2]– عبد الله بن خليفة العطية، الفلاش باك، الراية، https://www.raya.co

تساعد هذه التقنية على أن يتنبأ القارئ بما سيحدث في المستقبل، وذلك عند تقديم نهاية القصة للبداية بها، يمكن الإقرار بأن أغلب أعمال السائح قد خضعت لهذه التقنية (مذنبون لون دمهم في كفي، كلونيل الزبربر، تماساحت، تلك المحبة، أنا وحاييم) فكل هذه الأعمال عبارة عن استرجاعات واستذكارات ولذلك نجده يستعمل في كل مرة نمطا سرديا " فمن التراث الشعبي إلى العجائبي والصوفي إلى الفلاش باك إلى ما يشبه التقطيع السينمائي فالمتخيل السردي إلى خطاب الاعتراف إلى المذكرات فالسرد البوليسي وهكذا .. انسجاما مع تيمات النص الروائي "[1]، وهذا ما يؤدي إلى سحر القارئ وإضفاء عنصر التشويق على النص.

9.2. الشخصيات:

تعتبر الشخصيات العمود الفقري للمتن الروائي، حيث تلعب دور فعال في النص فهي التي تقوم بجميع الأفعال فتصدر منها جميع الأقوال لكي تحدث لنا بنية اجتماعية داخل النص لتعكس الواقع أو تماثله حيث " تبرز لنا البنية الاجتماعية داخل النص الروائي بصورة أجمل من كون النص يقوم أساسا "القصة" لما يحويه من شخصيات وأحداث وفضاءات وأزمنة تكون لها مرجعيتها إلى الواقع مباشرة أحيانا كثيرة، وعلى الرغم من البعد التخييلي المضفي على عالم القصة، فإن نص الرواية يتصل جسديا بأفعال وعلاقات وقيم اجتماعية وتاريخية محددة "[2].

سعى الكاتب إلى بناء وإنتاج شخصيات تشبه الأشخاص في العالم الواقعي وذلك في أفعالها وأحوالها وتحركاتها تتناسب بدورها مع واقعه التجريبي والتخييلي " فالكاتب هو الذي ينتجها ويبنيها بناءً على تفاعله مع واقعه التجريبي يرمي من وراء ذلك إلى تقديم رؤية العالم

[1]– آمنة بلعلى، فلسفة الكتابة لدى الحبيب السائح، فني– زد، 2018، https://www.fenni-dz.net

[2]– سعيد يقطين، إنفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2001، ص140.

الذي يعيش فيه من خلال خلق هذا العالم كما يتصوره أو يتخيله أو يراه أو كما يراه وفق موقفه منه "[1]، فالسائح يحاول دائما أن يصور شخصياته أكثر واقعية وبسيطة، حيث يرفع عنها مقام المثالية ينزلها إلى مستوى الأشخاص في العالم الواقعي الحقيقي.

ومهما تكن الشخصية سواءً كانت سياسية أو دينية أو تاريخية فهو يحاول دائما رسم معالمها الحقيقية ويكسوها لباس البساطة، وبهذا يكون قد قرب عملية الإبداع أكثر فأكثر إلى القارئ.

ومن مميزات السائح أنه لا يختار الشخصيات ويبني عليها الأحداث وإنما الخطاب والأسلوب الحكائي هو الذي يفرضها وهو يقوم بتحريكها وفق هذا الأسلوب.

10.2. تقنية المنولوج:

تساعد هذه التقنية على معرفة الحالة النفسية للشخصيات وكذا ما يجول بداخلها ويجعل الشخصية أكثر حيوية، وأوفر إحساس، حيث تتدفق مشاعرها تدفعا عفويا، وقد وظف السائح هذه التقنية التي تظهر جليا في كل من "تلك المحبة" و"كولونيل الزبربر" و"أنا وحاييم" أين " تبدو الرواية مونولوجا طويلا بين البطل ونفسه، حين يسرد بعين غير محايدة تاريخيا أرهقته الكتب لسبب فرض وجهات النظر الذاتية "[2]، هذه التقنية لا تسمح فقط بمعرفة المعلومات الخاصة بالشخصية الرئيسية، وإنما تتعدى ذلك لتعبر عن الشخصيات الأخرى ومعرفة معاناتها وأحاسيسها.

3. التاريخ في أعمال الحبيب السائح:

[1]– سعيد يقطين، إنفتاح النص الروائي، ص141.

[2]– يزن الحاج، الحبيب السائح: زمن الأدب التاريخي، الأخبار، 2015، https://alkhbar.com

يمكن الإقرار بأن أعمال الحبيب السائح لا تخلو من القضايا التاريخية، حيث لا يقدم نصا إلا وأقحم فيه العنصر التاريخي، وهذا في معظم أعماله (كولونيل الزبربر، الموت في وهران، من قتل أسعد المروري، أنا وحاييم) والدارس لهذه الأعمال يجدها تقترب أكثر للنصوص التاريخية، لما تعالجه من أحداث ووقائع حدثت في حرب التحرير أو إثر المحنة الوطنية، لكن الملفت للانتباه أن هذه الأعمال لا تعد كونها روايات تاريخية وإنما هي أعمال أدبية محضة عالجت في طياتها التاريخ الجزائري بمراحله، وهذا تصريح أدلى به الحبيب السائح بنفسه أنه " لا يكتب الرواية التاريخية من خلال الأعمال التي قدمها سواءً "كولونيل الزبربر" أو "الموت في وهران" أو "من قتل أسعد المروري" وغيرها ولكن لديه مشكلة التاريخ وبالتالي –حسبه– يود قوله روائيا "[1].

يعد السائح من الروائيين المخضرمين، فقد عاش الفترات الصعبة التي مرت بالجزائر، وشهد الثورة وهو طفل صغير، وهذا ما شكل لديه حس الكتابة على هذه المواضيع، فقد حاول من خلال نصوصه كشف المسكوت عنه تاريخيا وأن يتحدى المؤرخ فيما لم يقله، لأن الكتابة عن قضية الثورة التحريرية ليس بالأمر الهين، وهو ما تطلب من السائح الكثير من الجرأة ومعرفة اللغة، حتى يتسنى له إيصال الرسالة التي يود طرحها، وهو ما صرح به الحبيب السائح قائلا: " الكتابة روائيا، الآن عن حرب التحرير تقتضي كثيرا من المعرفة والبحث ومن الشجاعة خاصة لتناول المسكوت عنه والمحظور وما لم يقله المؤرخ وما رسخه السياسي خدمة له ولنظامه، الكتابة عن ثورة حرب التحرير فعل يضعك في مواجهة مباشرة مع العتمة التاريخية "[2]، فإن الكتاب المتميز هو الذي لا يأخذ المسلمات

[1]– الحبيب السائح لا أكتب الرواية التاريخية، مسابقة كترا للرواية والفن التشكيلي، 2017، https://www.kataranoveles.com

[2]– أبو بكر زمال، الحبيب السائح، الصحراء جنة الكلمات، الجديد، 2020، https://www.aljadeedngazine.com

التاريخية ويعيد اجترارها في نصوصه وإنما يقوم بمساءلة هذا التاريخ، وفي كل مرة يعيد طرح الأسئلة، ومنه يمكن القول بأن الكاتب المتميز هو الذي يضع هذا التاريخ موضع التشكيك، وهذه الميزة من خصائص الكتابة عند السائح.

يقوم الحبيب السائح بالكتابة عن التاريخ الجزائري، ثورة نوفمبر1954 والعشرية السوداء بالاعتماد على الذاكرة الفردية والجمعية، بحكم أن هذه الأحداث شارك فيها الجميع والثورة كذلك ملك لجميع الجزائريين.

لقد تطرق السائح من خلال هذه النصوص وبالاعتماد على الذاكرة إلى الحفر عميق في التاريخ الجزائري " أصبح الروائي الحبيب السائح يحفر عميقا في ما يبدو مسلمات، وهي ليست كذلك، وكأن تاريخنا الوطني لم يكتب حتى الآن "[1]، وهذا الحفر يحاول السائح من خلاله الوصول إلى الحقيقية التاريخية المطلقة وهذا بطرح العديد من الأسئلة التي تدخل بدورها في متاهات التاريخ.

حملت هذه الأسئلة طابع وأسلوب خاص في الطرح، فكان السؤال عن الهوية، الثورة ومحتوياتها، الدين، الآخر، جل الانشغالات التي سيطرة على ذهنية السائح، وبهذه الأسئلة التي يتركها في الغالب عالقة بدلا من الإجابة عليها يحاول تصحيح المرجعيات الثقافية والفكرية التي اكتسبها الشعب الجزائري بفعل مخلفات الاستعمار أو بسبب سياسة السلطة المتطرفة الحاكمة.

[1]– واسيني الأعرج، حاييم أو سيرة اليهودي الطيب، القدس، 2018، https://www.alquds.com

المبحث الثّاني:

الهويّـــــــة بين التّحديد واللاتحديد

1. مفهوم الهوية:

يعد مفهوم الهوية من المفاهيم التي يصعب الإمساك بها، وهذا راجع للتراكم المعنوي الذي اصطبغ به عبر الزمان والمكان، فلكل شخص ومجتمع طريقته في العيش، ولهذا فإن كل ما حاولنا السيطرة على هذا المفهوم ووضعه في أطر محددة، ينتج صراعات داخلية وأزمات متعددة بين فئات المجتمع الواحد، ولهذا " فإن هويات الشعوب لها مظاهر مختلفة ومتعددة تتغير باستمرار وقد تحتوي على تباينات كثيرة "[1]، وهكذا يكون التعدد الثقافي والمظاهر الثقافية بين الشعوب، أمر طبيعي لا ينتج أي مشاكل ولكن علينا فقط تقبل الآخر.

بالرغم من بساطة مفهوم الهوية من حيث تركيبه اللغوي إلا أن " على خلاف يتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشاكلة وذلك لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته"[2]، ومفهوم الهوية بهذا التنوع يتجزأ كلما حاولنا ضبطه في مفهوم واحد، وكلما حاولنا السيطرة عليه، ظهر مفهوم جديد ذو دلالة أخرى، وتظهر مجموعة معينة من الأفراد كانت من قبل مقصية أو جماعة جديدة لها أفكار جديدة، أو حتى من ناحية الأفراد فلكل فرد أسلوبه وحياته الخاصة وهويته الخاصة.

رغم هذا التجزؤ الذي يحمله مفهوم الهوية وصعوبة التحكم فيه، إلا أن هذا لم يمنع الباحثين والفلاسفة، من محاولة فك شفرات هذه القضية وشرح مفهوم الهوية حسب رؤيتهم الخاصة أو حسب الظروف السائدة في عصرهم، لأنه حتى الزمان يلعب دورا مهما في تحديد مفهوم الهوية.

---

[1]– هارمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، دار كيوان للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2016، ص11.

[2]– أليكس ميكشيللي، الهوية، تر، علي وطفة، دار الرسم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1993، ص7.

يقول نيتشه في مفهوم الهوية " إنها من حيث الواجهة فحسب أو في أوهن الأوقات، وبوجه ما على كبرهم قد انتموا إلى أوطان فإن لم يرتاحوا إذ أصبحوا وطنيين إلا من أنفسهم"[1]، وبهذا يكون نيتشه ربط مفهوم الهوية بالانتماء إلى وطن معين، أي تلك الرقعة الجغرافية التي ولد ونشأ فيها الفرد، ولقد دقق أكثر عندما ربطها بالشعور بالوطنية، ومن هنا تبدأ سمات الهوية تظهر على الفرد، أي الهوية مقترنة بذلك الإحساس والاعتزاز والشعور بالوطنية.

ويرى آخرون أن الهوية " إحساس بالذات ينشأ حينما يبدأ الطفل بالتميز عن والديه وعائلته، ويأخذ موقعه من المجتمع "[2]، ويبدوا أن الهوية عند هؤلاء تنمو وتكبر مع الطفل وعندما يبدأ بالإدراك والوعي يبدأ في إدراك هويته، وعن طريق هويته يكسب مكانة في المجتمع، سواءً أكان ذكرا أم أنثى، سيدا أو خادما، وما إلى ذلك من التصنيفات الذاتية التي تشعر الإنسان بانتمائه إلى مجموعة دون أخرى.

ويمكن تعريف الهوية أيضا " بوصفها منظومة من المعطيات المادية والمعنوية والاجتماعية التي تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفية، ولكن لا يمكن لمثل هذه المنظومة أن تكون في حيز الوجود ما لم يكن هناك شيء يعطيها وحدتها ومعناها ويتمثل ذلك في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها "[3]، هكذا يكون مفهوم الهوية إذن مرتبط بالمصادر الاجتماعية المتعددة، والتي يكتسبها الإنسان بمرور الوقت والانخراط في المجتمع، لكن كل هذه المصادر الاجتماعية والمظاهر الأخرى لا يمكن لها، أن تظهر إن لم يصحبها إحساس وشعور بالهوية، وهذا الإحساس هو الذي

[1]– فتحي المسكين، الهوية والزمان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص5.

[2]– هارمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، ص13.

[3]– أليكس ميكشيللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص12.

يعطي لها دفعا للخروج، والكبت لا يساعد مجتمع أو هوية معينة في الظهور بل يجعلها تختفي.

ومن هنا نستنتج أنه رغم التعاريف المتعددة والمتنوعة، إلا أن هناك سمة موحدة في التعريف بالهوية، ألا وهي الشعور بها، وهي أهم سمة لأن الإحساس بالهوية والشعور بها يدفعنا للدفاع عن هويتنا، وهذا من أجل إظهارها للعالم، رغم العقبات التي تواجه بعض الهويات والثقافات والتي تمنع أو تحد من ظهور هويات لسبب أو لآخر.

2. منظور الهوية قبل الحداثة:

للهوية عدة مظاهر تحتضنها الأطر الاجتماعية، بكافة أشكالها وتعدُداتها فالمعروف أن الحضارات عبر الزمن تختلف في عدة مظاهر، ولكل حضارة خصائصها التي تميزها عن حضارات أخرى كالحضارة الإغريقية والفرعونية والإسلامية.

كانت للمجتمعات ما قبل الصناعة ميزة تجمع بين كل هذه الحضارات وهي أن فردها مرتبط دائما بالأطر الاجتماعية، أي هوية الفرد مقترنة بهوية الجماعة ولهذا يعتقد دوركايم " أن الوعي الجماعي له تأثير قوي جدا على الناس في مجتمعات ما قبل الصناعة "[1]، أي أن في مجتمعات ما قبل الصناعة كان الوعي الجمعي أسبق وذو أهمية كبيرة على الفرد.

ومن هنا نستنتج ذلك التلاحم والترابط الموجود بين المجتمعات التقليدية، وذلك التكافل الاجتماعي الموجود بينهم " فمثلا المعلمون يحتاجون إلى الفلاحين في إنتاجهم الطعام والفلاحون يحتاجون إلى المعلمين في تعليم أبنائهم، ودوركايم يصف هذا الموقف في الاعتماد المتبادل بالتضامن العضوي وفي المجتمع ذي التضامن العضوي تبقى الثقافة

[1]– هارمليس وهولبرون، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص19.

المشتركة أو الوعي الجماعي ضروري "[1]، ولهذا فإن التضامن يعتبر من ضمن السمات البارزة والأساسية في المجتمعات التقليدية، نظرا للطابع الاجتماعي الذي كانوا يعشون عليه، ككثرة الحروب التي كانوا يعيشونها، والتي فرضت عليهم هذا التلاحم الاجتماعي وكذا الارتباط بالمجتمع، وهذا ما يحد من ظهور الهويات الفردية ويجعل ظهورها شديد الصعوبة.

ومن هذا التلاحم الشديد نجد أن الثقافة أو المظاهر الثقافية تلعب دور كبير في الجمع بين أفراد هذه المجتمعات، وتجعل التمييز بينها أمر شديد السهولة لأن كل مجتمع ومظاهره الثقافية الخاصة به.

1.2. الهوية الثقافية في المجتمعات التقليدية:

تعد المجتمعات التقليدية، من المجتمعات التي تعتمد على البساطة في كل مظاهر حياتها، ولهذا فإن ثقافتها بسيطة ببساطة حياتها اليومية، وهذه الثقافات قد تختلف من مجتمع إلى آخر " ومن البين أن النغم الثقافية في العالم متعددة الأصوات "[2]، فكل مجتمع وثقافته الخاصة التي تميزه عن باقي المجتمعات الأخرى، وهذا ما ينتج ذلك التنوع الموجود في الثقافات والاختلاف الثقافي أيضا.

ومن هنا يكون من الطبيعي أن يكون الاختلاف في كل أنحاء العالم، فبين الهنود الحمر والأفارقة طقوس تختلف، باختلاف المظاهر الثقافية من طعام ولباس، وحتى طريقة العيش والاحتفال بالمناسبات المختلفة، وتعد " الأغاني الشعبية والرقص الشعبي والحرف اليدوية وتشكيل المساكن لها علامات، تعبر لما هو أكبر من ذلك بمعنى كونها فن من

[1]– هارمليس وهولبرون، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص20.

[2]– دارويش شايغن، هوية بأربعين وجه، تر، حيدر نجف، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط1، 2016، ص37.

الحياة وطريقة في الحياة رتبت ورسمت عبر التجارب الطويلة للاستجابة للبيئة البشرية "[1]، وتكون مثل هذه المظاهر الثقافية تمثل الأساس في الحياة الاجتماعية التقليدية وكانت تجمع كل أطياف المجتمع، مما يزيد المجتمع قوة وتماسكا، وتشعرهم بالاعتزاز والفخر بهويتهم وتسهل التعريف بهويتهم لباقي مناطق العالم عبر هذه التمظهرات المختلفة.

كانت المجتمعات التقليدية دائمة السعي في نقل عاداتهم وتقاليدهم من جيل إلى آخر، وهذا من أجل الحفاظ على هويتها وخوفا من زوالها، وعلى هذا يرى "هنري رلف لنتون" "أن ثقافة المجتمع هي طريقة حياة أفراده وهي مجموعة الأفكار والعادات التي يتعلمونها ومن ثم ينقلونها من جيل لآخر "[2]، ومن أجل الحفاظ على الهوية، يجب ويستلزم على مجتمع معين أن يتناقلها من جيل لآخر وهذا عن طريق التعليم والتعريف بالثقافة التي تمييزهم وغرسها في أذهانهم، ومن ثم تحبيب هذه الثقافة إليهم، وهذا يكون عن طريق السلوكات اليومية للمجتمع أو عن طريق التجمهرات المختلفة، ومن هنا يستغل كل مجتمع الفرصة، من أجل الإقرار والتعريف بموروثه الثقافي وتكون " الثقافة في واقع الأمر كل مكتسب مشترك بين أفراد الجماعة، وتشمل أيضا كل أشكال التعبيرات المختلفة والفعاليات المتنوعة التي تنبثق عن النظام المعرفي المكتسب "[3]، الثقافة هي إفراز المعتقدات المختلفة للمجتمع والتي تتشكل في عدة مظاهر، وتستغل أي فرصة متاحة لها، من أجل الظهور والتي تكون عبارة عن نمط تفكير مجتمع معين والذي يتشكل عبر هذه السلوكيات المختلفة.

وما يميز المجتمعات التقليدية هو إيمانها بالأساطير والمعتقدات الخرافية، فهي مجتمعات تجعل من الأسطورة والمعتقد رموزا لها تميزها عن باقي المجتمعات الأخرى والتي

[1]– هارمليس وهولبرون، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص42.

[2]– المرجع نفسه، ص8.

[3]– أليكس ميكشيللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص27.

تعكسها في الحياة اليومية، من خلال الطقوس الدينية والحكايات والخرافات والتفسيرات المختلفة للكون.

تعد الآلهة عند الإغريق مثلا " النظام الثقافي في بنية من التصورات والتفسيرات الخاصة بإدراك العالم، فهو يحتوي على شبكة إدراكية تتضمن معايير ونماذج ورموز ثقافية"[1]، وتختلف التعابير من مجتمع لآخر وهذا نظرا لاختلاف القدرات العقلية والذهنية لهذه المجتمعات والطبيعة السائدة في كل مجتمع مما يزيدها تميزا وإظهارا للثقافة وتشكيلا للهوية الخاصة بها " تعمل الأسطورة على تعزيز التلاحم في إطار جماعة ما وذلك من خلال التأكيد على العناصر الثقافية الأساسية "[2]، ورغم رؤية الإنسان المعاصر لمثل هذه الأساطير على أنها أمور لا معقولة، إلا أنها كانت تحافظ في وقت مضى على الكيان الاجتماعي لمختلف المجتمعات.

رغم كل هذه الآراء والانتقادات التي حملتها هذه المجتمعات، والمظاهر التي تمثل كيانها، نجد من يدعم هذه الأفكار التي كانت بمثابة توجه فكري والنقطة الأساسية التي بدأت منها مختلف الحضارات، فرغم بدائية هذه الأفكار، إلا أنها كانت ذات قيمة مهدت لظهور أفكار جديدة وأراء علمية في العالم، وسمحت للعقل البشري بالتفكير دون قيود، وقد سمحت هذه الأفكار البدائية بقيام حضارات عظيمة عمرت لقرون طويلة من الزمن، وأضحت منهلا يستسقي منه مختلف العلوم الحديثة، والدليل الأكبر على عظمتها هو مزاولة دراستها إلى يومنا هذا في أكبر جامعات العالم.

[1]– أليكس ميكشيللي، الهوية، تر، علي وطفة ، ص30.

[2]– المرجع نفسه، ص ن.

وفي الأخير نقول أنه رغم تعدد المظاهر التي تدل على الهوية في المجتمعات القديمة " إلا أننا نعلم جميعا أن كافة الثقافات القديمة في العالم حصرية قومية النزعة "[1]، وهذا ما يفسر العنف الهووي الذي يظهر في مختلف المجتمعات، والسعي إلى فرض هوية معينة يؤدي إلى التشتت، والمجتمعات القديمة لم تتعد مفهوم الهوية لديها المفهوم القومي الذي يحدد ويؤطر من طرف المجتمع، فلم تترك للذات الحرية فلا توجد هوية فردية في المجتمعات القديمة بل اكتفت بهويات جماعية.

3. الحداثة والهوية:

تعد الحداثة موجة لأنها غيرت كل أنواع التفكير التقليدي، والتي بدورها هزت جميع الجوانب الحياتية للإنسان الحديث والمعاصر من علم وسياسة وثقافة ودين، وسعت الحداثة إلى كسر كل تلك المفاهيم القديمة وتحويلها إلى مفاهيم جديدة، وأهم ما سعت إليه الحداثة، هو البحث في ما يجمع الناس بصفة كافة دون تمييز " فنظرة الحداثة ألغت جميع الخصوصيات والتقاليد السلفية لتعلق عن ما يشترك فيه جميع البشر بعيدا عن خصوصياتهم الظاهرية إنه الشيء الذي يتوافر عليه الإنسان فقط، ملكة مشتركة منفصلة عن الثقافات والعنصر والسمات القومية، إنه العقل "[2]، كان العقل من أهم الأشياء التي دعت إليه الحداثة، وهذا نظرا للقيود التي كانت تمارس عليه من قبل، خاصة من طرف الكنيسة التي قيدت العقل وحرية التفكير.

لهذا أتت الحداثة بثورتها الهائلة لتغير هذا التفكير السائد، وتحويل المجتمعات من زراعية إلى صناعية تكنولوجيا، وهذا ما غير المجتمعات بصفة عامة، وغير الإنسان من ناحية "الأنا" الفردية بصفة خاصة .

---

[1]– داريوش شايغان، هوية بأربعين وجه، تر، حيدر نجف، ص39.

[2]– المرجع نفسه، ص ن.

1.3. مفهوم الحداثة:

تعددت مفاهيم وتعاريف الحداثة، لكن لم تبتعد كثيرا عن المفهوم الأصلي لها وهو التحديث والتغيير الجذري، لفكر معين ساد لفترة من الزمن وتغييره بفكر يوافق متطلبات العصر الحديث، والثورة الصناعية التي حدثت في أوروبا، والتي بدورها مهدت لثورات أخرى حول العالم والتي رفضت ما كانت عليه وأرادت الدخول في غمار الحداثة لأنها كانت تراها ضرورية، رغم اختلاف الحقب الزمنية من مجتمع لآخر.

وقد عرّف البعض الحداثة " بكونها حقبة تاريخية متواصلة ابتدأت في أفكار الغرب ثم انتقلت آثارها إلى العالم بأسره، مع اختلافهم في تحديد الحقبة، فمنهم من قال أنها تمتد على مدى خمسة قرون كاملة، بدءا بالقرن السادس عشر بفضل حركة النهضة وحركة الإصلاح الديني ثم حركة الأنوار والثورة الفرنسية، تليها الثورة الصناعية فالثورة السوفياتية، ثم ثورة المعلوماتية، ومنهم من جعل هذه الحقبة التاريخية أدنى من ذلك حتى نزل بها إلى قرنين فقط "[1]، والحداثة بهذا تختلف من حيث الفترة التي انتشرت فيها من بلد إلى آخر، والملاحظ أن الحداثة لم يتم قبولها أو لم تحدث إلا بعد قيام ثورات مختلفة على الأنظمة السائدة والحاكمة، لأن هذه الأنظمة المسيطرة، كانت تنظر إلى الحداثة على أنها تهديد لقيمها السائدة.

وفي تعريف آخر حدت الحداثة على أنها " انتشار لمنتجات النشاط العقلي، العولمية والتكنولوجيا، الإدارية فهي تتضمن عملية التميز المتنامي لعديد من قطاعات الحياة الاجتماعية "[2]، ويبدو من خلال هذا التعريف أن الحداثة، مرتبطة بتمجيد العقل وهي تسعى

[1]– طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص293.

[2]– آلان تورين، نقد الحداثة، تر، أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، دب، دط، 1997، ص29.

إلى توحيد وجمع العالم، وهذا عن طريق التكنولوجيا والتنظيم المؤسساتي الجديد وسن قوانين تنظم العالم بأسره وسيتم على إثرها جمع أقطار المعمورة.

ويمكن تقديم مفهوم آخر، حيث يعد هذا التعريف من التعاريف الشاملة للحداثة والأكثر دقة من التعاريف السابقة، فالحداثة هي " ظاهرة غربية انطلقت من أوروبا مع الثورة الفرنسية (1789) وعنت التغيير في النظام السياسي الملكي الديموقراطي الذي يقوم على سلطة الشعب والمجالس الممثلة للشعب واعتماد الليبرالية نظاما اقتصاديا، والمساواة بين الجنسين على الصعيد الاجتماعي، وإلزامية التعليم للأطفال والانتقال من نموذج الجماعات والطوائف الدينية المتحاربة إلى المواطن لا ابن طائفة أو دين، وتذويب الطوائف والأديان في بوتقة مدنية علمانية واحدة لا تميز فيها على أساس عرقي أو ديني أو عملي، وبهذا تكون علاقة المواطن بالدولة لا بسلطة أخرى "[1]، بالاستناد إلى ما سبق إن الحداثة تبحث فيما يجمع الناس، دون اعتبار أي اختلاف طائفي أو عرقي، الحداثة تجمع الناس في قالب واحد وتجعلهم ينصهرون في قالب الدولة والوطن.

كانت الحداثة إذا بهذا الشكل تمجيدا وتقديسا للعقل، وتستبعد كل الفروقات الأخرى التي كانت بين الناس، ولهذا كان العقل في زمن الحداثة هو الوحيد الذي يظهر هوية الإنسان، وهذا من خلال المساهمات المختلفة التي يقدمها للبشرية من أجل السير قدما.

2.3. الوطن والحداثة:

غيرت الحداثة عدة مفاهيم ومست كل الجوانب الحياتية للإنسان، والتي سعت من خلالها للحفاظ على الإنسان بصفة عامة وهويته بصفة خاصة، وما يعتبر نتاج للحداثة

[1]– عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق دط، 2003، ص349.

ويحسب عليها، هو الجمع بين أفراد المجتمع الواحد باختلاف أعراقهم في تلك الحدود الجغرافية ألا وهو "الوطن".

تعد الهوية الوطنية من أهم الهويات التي تجمع الإنسان المعاصر، فهي دائما تسعى للحفاظ على الأمة الواحدة في هذه الحدود الجغرافية، بكل الطرق الممكنة " ففي المجتمعات الحديثة كانت القومية تشكل عنصرا هاما للهوية، معظم الدول القومية أكدت على أهمية الأمة (Nation) وحاولت استعمال الهوية الوطنية لخلق التضامن بين المواطنين من مختلف الطبقات أو الأصول العرقية "[1]، وبهذا تكون الدول الحديثة باختلاف مواقعها الجغرافية تسعى دائما إلى خلق التكاثف والتلاحم بين المواطنين، وهذا عن طريق المنظمات المختلفة التي تكون مدعمة من طرف الدولة، وهذا من أجل خلق ما يسمى بالتكافل الاجتماعي، وأيضا استخراج تلك الروح الوطنية من الأفراد، مما يجعلهم أكثر حبا للوطن وأكثر ارتباطا بالهوية الوطنية.

تسعى الدول في مختلف أنحاء العالم إلى توفير الحقوق للمواطنين، وكذا تقديم كل الشروط المعيشية، وبالمقابل يكون لزاما على هذا المواطن تقديم كل ما بوسعه لوطنه، وبهذا تخلق الدولة مواطنا يحمل كل سمات المواطنة، ومن أجل هذه السمة لا بد على الدولة من " بناء مفهوم للوطن مدني على نحو جذري فحينئذ فقط يكون الانتقال من الوطن إلى المواطنة حلا تاريخيا كليا، وإنه بذلك يتوفر سياق روحي يكون فيه النواشج بين "هويتنا" من جهة ما نحن ويشكل مبادئ تتحرك ضمن جماعة تاريخية تفرض علينا حدا من التضامن الإتيقي "[2].

تسعى الدول الحديثة بناءً على ما سبق إلى انتزاع الروح الفردية، أي المواطنة التي تميز كل إنسان عن غيره وهذا من خلال الدفاع عن هذا الوطن، ومحاربة العدو المشترك،

[1]– هارمليس وهولبرون، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص29.

[2]– فتحي المسكين، الهوية والزمان، ص72.

بغض النظر عن كل الاختلافات الإيديولوجية، حيث أن الوطن " لا ينطوي بلغة دون الأخرى ولا بعرق يفصل أو دين يفرق بل بإمكانية العمر الذي يحوزنا، وهذه الإمكانية تأخذ اليوم شكل الحداثة، إن الحداثة هي اليوم شكل الوطن لمن يفكر "[1]، والمواطن الحقيقي هو ذلك المواطن الذي يكون عنصرا إيجابيا وفعالا، من خلال وضع بصمته الخاصة في ميدان الاختراعات والابتكارات التي من شأنها الرفع من قيمة الوطن، ومواكبة عجلة التطور.

وفي الأخير نقول أنه رغم عدم توفر الشروط الملائمة للعيش في بعض البلدان، إلا أن روح المواطنة تسري في دماء المواطنين فهي مكتسبة منذ الطفولة، ولا تقتصر على المصالح المشتركة بين الدول والأفراد " فالوطن الروح فمهما احتلت الأرض فإن الروح لا تحتل الوطن شقيق الروح "[2]، وهذا الارتباط اللاشعوري بالوطن والتشبث به، يحتم على الإنسان رغم كل الظروف على التلاحم والتكاثف، من أجل القضاء على العدو، ومثل هذه الظروف تثبت ذلك التعلق الكبير الذي يربط الإنسان بوطنه رغم كل شيء، وأهم دليل على هذا الارتباط الشديد بالوطن دون مصلحة، الثورة الجزائرية التي برهن شعبها على ذلك الحب العميق الذي يربط الإنسان بوطنه.

3.3. الهوية الثقافية في ظل الحداثة:

أحدثت الظروف والتحولات التكنولوجيا للإنسان المعاصر، عدة تغيرات في تفكيره واعتقاده ورؤيته للحياة، لأن مصير العالم اليوم مرهون بقوة الموارد المالية، والقوى الاقتصادية.

والثقافة عنصر لا يتجزأ من هذا التغيير الذي طرأ على العالم، فتلك النظرة إلى الثقافة التي يعتبرها الإنسان القديم مجموعة من السلوكات والعادات وفقط قد تغيرت، وتحولت

[1]– فتحي المسكين، الهوية والزمان، ص71.

[2]– حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2012، ص63.

الثقافة اليوم إلى الدليل على مجموعة من المنجزات العلمية في كل المجلات المختلفة الأدبية منها أو العلمية، وأصبحت الثقافة مقترنة بالذات الإنسان وأصبحت كدليل على هوية إنسان دون آخر، ومن هنا تكون الثقافة " شديدة الارتباط بفكرة الحداثة، حيث تكون بعض المجتمعات أكثر ثقافة وحضارة من المجتمعات الأخرى، وهذه النظرة للثقافة تنتقل بأفكار التطور مثل أفكار "هربت سبنسر" الذي ينظر إلى المجتمعات الغربية باعتبارها أكثر تطورا قياسا بغيرها من المجتمعات "[1]، ومن هنا يتضح لنا، أن التطور التكنولوجي والمعلوماتي من أهم السمات الدالة على تطور ثقافة على أخرى، ومن أهم الأشياء التي تنظم العالم إلى متقدم ومتخلف.

بهذا الشكل تكون الثقافة مرتبطة بمدى الإنجازات التي يستطيع أن يقدمها الفرد للمجتمع، ومدى وجود الهياكل المستعملة لتحسين ظروف الإنسان من منشآت وغيرها، وكلما زاد العلماء والمفكرون زادت قوة الدولة ولهذا " يعد النظام المعرفي بوصفه بنية أساسية للشخصية، تنطلق منها كل فعاليات الفرد ونشطاته "[2]، ويعد الشخص المثقف بهذا الاعتبار عنصر فعال في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، وفخر لوطنه بأكمله ويعد أحد العناصر المؤثرة في المجتمع ومن الذين يُدخلون الوعي الاجتماعي لعامة الناس، لأن كل الناس تثق فيه وبأفكاره، وهذا ما حدث خاصة في دول العالم الثالث، فهي متأثرة كثيرا بالشخصيات المثقفة في بلادها، ولعل خير الأمثلة على هذا الأمر "المهاتما غاندي" في الهند و"نيلسون مانديلا" في جنوب أفريقيا، حيث أثروا هؤلاء كثير في مجتمعاتهم، عبر الاندفاع الذي زرعوه في مجتمعاتهم لمناهضة العنصرية في جنوب أفريقيا مثلا أو محاربة الإنجليز في الهند.

[1]– هارمليس وهولبرون، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم محسن، ص8.

[2]– أليكس ميكشيللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص92.

تبرز المشاركات المختلفة للمثقف دوره الفعال في التغيير نحو الأفضل، ولهذا فإن المجتمعات الغربية تتضافر وتتنافس على احتواء هذه الأدمغة، وجعلها تعمل لصالحها لأنها مجتمعات تدرك قدرة هؤلاء على التغيير " والمجتمعات ذات الثقافة القائمة على الإنجاز هي أكثر فاعلية من تلك الثقافة القائمة على النسب "[1]، والمجتمعات الغربية والمتطورة تؤمن بمدى إنجازات الفرد، ولا تهتم من هو وكذا أصله وفصله، فمن يقدم شيء للوطن والأمة تفتح له الأبواب على مصراعيها، فالأهم من يساهم في تقدم الوطن بأفكاره ويساهم في التطور.

وعلى هذا النحو من التغيرات التي طرأت على الثقافة وتحولها من مجرد سلوكيات إلى ارتباطها بالمثقف والإنجاز المتعلق بالمستوى التكنولوجي والدراسي والعلمي، تركت أثرا كبيرا على المجتمعات المتخلفة التي لا تمتلك الآليات التي تؤهلها أن تكون من المجتمعات المتطورة، ولهذا سارت في بعض الأحيان نحو التقليد والتأثر بهذه المجتمعات المتقدمة.

ومن هذا نستنتج أن على الدول المتخلفة عامة والعربية خاصة، إعادة النظر في برامجها التعليمية وهذا بغية منها لتهيئة جيل يستطيع التغيير والسعي قدما نحو الأمام، وتحقيق مختلف المنجزات العلمية " ولذلك وجد اتفاق واسع بين أهل الفكر والخبرة على أن أهم الأزمات المسؤولة عن تعثر التنمية والتقدم في أرجاء كثيرة من عالمنا العربي والإسلامي أزمة التعليم "[2]، ولهذا يكون التعليم من الأشياء التي يجب الاهتمام بها والاستثمار فيها لأنها تساهم في توعية الناس وإنتاج مثقفين يكونون في الصفوف الأولى ويوجهون الناس في مختلف الأزمات التي يمرون بها ويساهمون في توعية المجتمع، وهذا ما شهدناه في مختلف الأزمات التي مرت بها بلادنا، من بينها ثورة التحرير والعشرية السوداء التي كان فيه للمثقفين دور كبير في مواجهة هذه الأزمات وتوعية الإنسان البسيط.

---

[1]– هارمليس وهولبورن، سوشيولولجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص23.

[2]– إلياس بلكا ومحمد حراز، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتجية، أبو ظبي، ط1، 2004، ص7.

4.3. اللغة في ظل الحداثة:

مازالت اللغة في عصر الحداثة من المقومات الرئيسة للهوية وطريقة التعريف بشعب دون آخر، لأن اللغة تحمل عدة خصوصيات ومميزات تجعلها عنصرا مهما، وما زاد من أهميتها تلك الضجة التي أحدثها عالم اللسانيات "فرديناند ديسوسور" الذي أعطى للغة ودراستها أهمية كبيرة واهتم بها على أنها علم قائم بذاته " فاللغة هي القدرة على الاتصال وتعتبر شرطا أساسيا وضروريا لأي مجتمع إنساني "[1].

ولما أدرك الإنسان هذه الأهمية التي تملكها اللغة، تسارع لخلق مؤسسات وخلق ظروف تساعد في تطوير اللغة وتنميتها وهذا إثر موجة الحداثة، التي ساهمت في النظر إلى اللغة بمنظور مختلف، لِما كانت عليه سابقا، وخاصة تلك السيطرة التي تمارس من طرف الكنيسة، فبعد تشتت الكنيسة وانهيارها ظهرت لغات قومية في أوروبا خرجت كلها من رحم الكنيسة.

سعت هذه اللغات المنبثقة من رحم اللاتينية إلى التطور والانتشار، وقد تم هذا بصفة كبيرة بعد موجة الاستعمار، حيث اهتمت هذه الدول الاستعمارية بنشر لغتها وتعميمها في المؤسسات والإدارات ومختلف المعاملات اليومية، وخاصة في الإطار التعليمي، وهذا ما أعطى لهذه اللغات قيمة وأهمية كبيرة، وأصبحت تدل على ذلك المتعلم المثقف لمن يجيدها.

ولقد سعت هذه الدول بشتى الطرق والوسائل لإبقاء لغتها وتعميمها في الدول المستعْمرة، مثل ما فعلته فرنسا " فإنها اخترعت إطارا جديدا يسمح لها بمواصلة تأثيرها في هذه البلدان وتنمية مصالحها، فظهر ما يسمى "بالفرانكوفونية" وهي مؤسسة دولية تجمع الناطقين كليا أو جزئيا بالفرنسية وأنشأت لنفسها فروعا كثيرة من الجامعات الفرنكوفونية،

[1]– عبد الغاني عماد، سوسيولوجيا الهوية، مركز الدارسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2017، ص62.

وهكذا وفي هذا السياق نفهم حرص فرنسا على الاحتفاظ بوضع الأفضلية للغتها "[1]، وبهذه التنظيمات المختلفة تُبقي فرنسا سيطرتها على الدول المستعمرة رغم الاستقلال، والدول المستعمِرة تدرك بحنكتها السياسية جيدا أن القضاء على لغة الأمة يساهم في القضاء على كيان هذه الدول، وانصهار الشعب وتحوله ثقافيا وعقائديا، بهذا تكون اللغة ذات تأثير بليغ ولهذا " كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله "[2]، وسعت الحركة الاستعمارية إلى تعميم كل الأمور الخاصة بها، من ثقافة ولغة، وإن اختلفت في طرق الانتشار، فاللغة الإنجليزية انتشرت بدواعي العولمة ودواعي اقتصاد السوق، فقد عمت الإنجليزية في كل أرجاء العالم، والكل يسعى إلى تعلمها لأنها ترمز إلى لغة العلم والتكنولوجيا.

ولما أحس العرب بهذا التهديد الذي يترصد لغتهم، وحتى اللغات القومية الأخرى، سعوا جاهدين للحفاظ على لغتهم وهويتهم بإنشاء مجموعة من الكتاتيب في الفترة الاستعمارية أين يتم حفظ القرآن وتعلم اللغة العربية، مثل ما فعلته الجزائر في الفترة الاستعمارية، وكان همّ هذه الكتاتيب الإبقاء على اللغة العربية والحفاظ عليها من الخطر الذي يهددها، خاصة وأن اللغة ترمز لعدة مقومات في الإنسان وترمز لثقافته المستمرة، وتدل على تاريخ الحضارات، وعليه وجب الحفاظ عليها عبر مجموعة من التدابير.

ومن هذه التدابير نجد تطوير طرق تدريس اللغة العربية بتبسيط قواعدها، وتشجيع الطلاب في مراحل التعليم المختلفة على إجراء بحوث في اللغة العربية، وهذا من أجل الحفاظ على اللغة بصفة خاصة والهوية بصفة عامة، وبهذا الإبقاء للغة العربية في مختلف الأطوار التعليمية تبنى هذه اللغة وتحافظ، ويقول الشيخ "الإبراهيمي" في هذا الموضوع

[1]– إلياس بلكا ومحمد خراز، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي، ص80.

[2]– مصطفى صادق الرفاعي، اللغة والهوية، خيمة، https://www.khayma.com

"ينبغي أن نفهم نحن ونفهم أبناؤنا أن اللغة العربية هي رأس المال الذي تجب المحافظة عليه، وأن اللغات الأجنبية هي ربح فلا تعطي من العناية، ولا من الوقت إلا ما لا يزاحم لغتنا الأصلية ولا يتبلها بالضعف، ولا يمس قداستها عندنا "[1]، ويبدو من خلال نص الإبراهيمي أن السبل التي تؤدي إلى المحافظة على اللغة، تبسيط قواعدها وتحبيبها للأطفال، كما دعى أيضا إلى تعلم اللغات الأخرى.

نستنتج من خلال ما سبق، الأهمية القصوى التي تحملها اللغة في التعريف بمقومات وثقافة معينة، لهذا تسعى جميع دول العالم للحفاظ على لغتها لأنها من العناصر الرئيسية المشكلة للهوية، فطمسها بعني طمس الهوية.

5.3. الدين في ظل الحداثة:

كان من الأسباب الرئيسية والهامة لظهور الحداثة، تلك الاجراءات الردعية والسياسة القمعية التي تقوم بها الكنيسة، حيث تعرض الإنسان إلى كل أنواع المضايقات والسيطرة اللامحدودة، وهذا ما جعله بدوره يتحول إلى الحداثة.

ومن خلال هذا حاول الإنسان الحديث كسر كل ما هو اعتقادي سابق، وهذا ليس بغية التحرر المطلق، ولكن من أجل خلق مجال أوسع لاختيار التوجهات الدينية دون أي قيود أو سلطة " التأليه والالتزام والمحبة أمور مشتركة في كل أشكال التجارب الإنسانية في مختلف العصور والمجتمعات قبل ظهور الأديان وبعدها "[2]، وعلى هذا الأساس انتهجت الدول الحديثة سياسة تعكس التعايش الديني في المجتمعات وابتعدت عن التعصب، حتى وإن اتخذت دين معين في دستورها، فمبدأ تقبل الآخر كان هدف هذه الدول، ولهذا نبذت كل

[1]– أحمد الطالب الإبراهيمي، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ج5، 1997، ص256.

[2]– عبد الغاني عماد، سوسيولوجيا الهوية، ص 82.

أشكال التطرف الديني وسعت جاهدة لتعميم فكرة تقبل الآخر، فالأجنبي رغم دلالته على شخص غريب " غير أن العربية تقول أيضا أن فلان "لين الجانب" أي سهل المعيشة أو سهل القرب أو رفيق الجانب أي لطيف أو طوع الجانب أي سهل الانقياد "[1]، وهكذا يكون تقبل الآخر والتعايش بين الأفراد في غمار الحداثة، رغم الاختلاف المجود بين الديانات، ولكل فرد دينه وحرية اعتقاده، لكن في إطار احترام الآخر وعدم التجاوز والتعدي على حقوقه.

لقد شكلت حرية المعتقد، والتي منحتها الحداثة موضع الدهشة والغرابة لدى علماء الملة، فهؤلاء لم يتقبلوا هذه الحداثة، لأنهم اعتبروها تهديدا لمبادئهم " لنقر بأن واقعة الحداثة قد كانت مدعاة للدهشة لم تخرج منها، بعد خروجا أصيلا، وذلك لأن كل الظروف التي اعتادها العرب المعاصرون للخروج من دهشة الحداثة ما تزال عنيفة "[2]، وهذا ما أنتج مشكلة في مفهوم الدين عند العرب الذين لم يتقبلوا بعد هذه الحرية في المعتقد والتي نتجت من خلال الحداثة، هذا الأمر لم يكن حكرا على العرب والمسلمين فقط، وإنما مسّ جميع الديانات الأخرى، وهذا لاعتقادهم بأن الحداثة ما هي إلا تهديدا لقيمهم ومبادئهم.

وفي الأخير نقول أن رغم هذه الدهشة التي أصيب بها علماء الملة برمتهم، إلا أن هذا لم يمنع الدول الحديثة من خلق نظام يؤطر كل هذه الديانات، وتحاول احتوائها في قالب الدولة الحديثة، وهذا ما يسمى علمنة الدولة أو التعايش، ومن هنا نقول أن حرية المعتقد واجبة لكن على بعضنا البعض تقبل الآخر والعيش في سلام، فالدول بشساعتها كان ولَّبد أن يكون داخل حدودها عدة ديانات مختلفة.

4. الهوية الجماعية والهوية الفردية:

[1]– فتحي المسكين، الهوية والزمان، ص47.

[2]– المرجع نفسه، ص54.

أفرزت الحداثة عدة هويات، ولم تعد الهوية تتعلق بالدين واللغة والثقافة فقط، فالحركة العقلانية التي تميزت بها الحداثة أعطت للإنسان حرية كبيرة في اختيار هوياته، رغم أن الحداثة حاولت جمع كل أطياف المجتمع في الوطن الواحد، لكن هذا لم يمنع من ظهور جماعات تطالب بهوياتهم بطرق مختلفة، وتدافع عن أرائها، وهذا ما يؤدي إلى تعرضها إلى الاضطهاد، بسبب ما تحمله من أفكار تمس كيان وأمن الدولة في بعض الأحيان.

وفي فترة الحداثة لم تكن الجماعات وحدها فقط التي تطالب وتدافع عن هويتها، بل ظهر مفكرون مجدوا الذات وأعطوا لها الحرية، فلكل إنسان وهويته الخاصة به والظروف المحيطة به وهذا ما يجعله يختار ويقرر هويته، فالإنسان الذي يوجد في مقر عمله، والإنسان الذي يوجد في بيته مع عائلته يختلف تعامله وبالضرورة تختلف هويته.

1.4. الهوية الجماعية:

إن الظروف التي عشها الإنسان من اضطهاد وتقتيل، قد أدت به إلى إنشاء عدة جمعيات ومنظمات تدافع عن مجموعة من الحقوق، وهذا كله في الإطار القانوني الذي حدده العالم بصفة عامة والدولة بصفة خاصة " ففي الستينات والسبعينات بدأ الكتاب بالاهتمام والتمحور حول قضايا الطبقة والحركات الاجتماعية الجديدة تنشأ وهي مهتمة بالعديد من القضايا والهويات منها الأنوثة، صراع السود، التحرر الوطني، الحركات المناهضة، الأسلحة النووية وحركات البيئة "[1]، ومن الطريف في أمر هذه التجمعات المختلفة أنها تجمع عناصر مختلفة من المجتمع ومن بلدان مختلفة، أي تكون أعضاء وممثلو هذه الجمعيات مختلفة طائفيا وثقافيا، ويبقى الأمر الذي يجمع بين هؤلاء تلك الأفكار والمبادئ التي تحملها الجمعية، ولهذا لا تهتم هذه الجمعيات بالحدود الجغرافية والعرقية، فلا شيء يعيق طريقها، ومن هنا تتجسد هوية هذه الجمعيات بنوع الأفكار والمبادئ التي

[1]– هرمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص98.

تحملها، فالجماعة التي تدافع عن المرأة تتحدد هويتها على أساس هذا الدفاع وعلى إثر هذا النضال " يشكل تاريخ الجماعات منطلقا لتحديد هويتنا التي تحدد هوية الجماعة في تاريخها "[1]، وتاريخ نضال هذه الجماعات له دور كبير لتحديد موقعها في العالم فتختلف قوة جمعية عن جمعية أخرى، وهذا ما نجده في الدور الذي تلعبه منظمة الأمم المتحدة، فمنذ تأسيسها والعالم يعي أنها تدافع عن حقوق الإنسان وكل القضايا التي تشغل الرأي العام، والكل يدرك حجمها الكبير في القرارات المختلفة.

تمثل هذه المنظمة قوة عالمية في أرائها، ومن هنا تحددت أيضا هوية هذه المنظمة في تلك الأنشطة المختلفة التي تمارسها وعلى هذا وصف "كيرفتش" الجماعة بأنها " وحدة جمعية حقيقية قابلة للملاحظة بشكل مباشر وتقوم عل أساس مواقف جمعية مستمرة متصلة وتسعى إلى تحقيق هدف مشترك وهي وحدة من المواقف، ووحدة من الجماعات والسلوك، وهي أيضا تشكل إطارا اجتماعيا سويا يتجه نحو تحقيق تماسك نسبي لمظاهر الحياة الاجتماعية "[2].

لم يقتصر نشاط هذه الجمعيات في المنظمات العالمية الكبرى فقط، بل في كل أرجاء العالم توجد مجموعة من الأشخاص يكوِنون تجمعات مختلفة من أجل هدف معين، الحفاظ عل الحي مثلا أو المساهمة في تكوين جمعيات خيرية مختلفة، ويكون هدف هذه الجمعيات هو إظهار المشاكل التي توجد في العالم في ظل الحداثة وأيضا المساهمة في تغييرها بمجموعة من الوسائل المتاحة.

ولأن التطور التكنولوجي أصبح تطورا للمادة وهذا ما انعكس سلبا على الإنسان الذي أصبح يعيش وفق المادة فقط، والتي جردته من عواطفة وأحاسيسه، ظهرت هذه التنظيمات

[1]– أليكس ميكشيللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص23.

[2]– المرجع نفسه، ص38.

لتعزز التلاحم بين مختلف أطياف المجتمع، وتحاول إخراج إنسانية الإنسان قبل كل شيء " المشاركة في التنظيمات الجمعية والإيديولوجية للجماعة يتوافق مع الهوية الجماعية وتعزز الإحساس بالقوة والوضوح كما تسمح بإبعاد الشك الذي يولد تحت تأثير أفعال تثير القلق والخوف عند أفراد الجماعة "[1]، إذا المشاركة في التجمعات تشعر الإنسان بوجوده، وتخلق في نفسه حب الغير الذي لا يتخلله أي مصلحة مهما كانت، وهكذا يكون الفرد موجه من طرف الجماعة ويتفاعل معها ومع أرائها " كل فرد لم يعد شيئا مستقرا ومنفصلا عن الأفراد الآخرين بل إن العلاقة بين الأفراد والمجتمع تدخلت فيها المعتقدات الجماعية وعمليات الجماعة "[2]، والجماعات بهذا الشكل تسيل الأفراد في مبادئها وتجعله يكون إنسان ذو فاعلية في المجتمع وتكون له هوية يُعرفُ بها، حسب مبادئ الجمعية التي ينتمي إليها.

وفي الأخير يمكن الإقرار بأن لهذه الجمعيات والمنظمات دور كبير في التأثير على الإنسان المعاصر، فهي تساهم في انتشار أفكار معينة مثل ما نجده في مختلف المذاهب الفلسفية كالاشتراكية والوجودية وغيرها، أو أن تدافع هذه الجمعيات عن الإنسان المعاصر وتحاول تخليصه من المشاكل التي يتخبط فيها، كالجمعيات التي تحافظ على حقوق الأطفال وحقوق المرأة، ومن هذه الاختيارات التي يختارها الفرد في تحديد موقعه من هذه الجمعيات تتحدد هويته.

2.4. الهوية الفردية:

يتميز عصر الحداثة بظهور الهويات الفردية، ويعود وجودها إلى بدايات وجود الإنسان، لكن لم تمنح لها الفرص للظهور، وبتطور العصر وإعطاء العقل حرية واسعة، ظهرت هذه الهويات الفردية، وما يميزها أنها دائما قابلة للتغيير وهذا وفق الأعمار أو وفق

[1]– أليكس ميكشيللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص75.

[2]– هارمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص96 .

ظروف تمس الكيان الداخلي للإنسان " والنظرة لعلم النفس والاجتماع تؤكد أن هوية الفرد هي في الحقيقة متعددة وسائلة "[1]، فهوية الفرد متغيرة بتغير الزمان وبتغير الظروف التي تحيط بالفرد من سياسية واقتصادية وحتى الحدود الجغرافية فتتغير تصرفاته بتغير المنطقة التي يوجد فيها.

وهذا ما يتضح لنا من خلال الاختلاف الموجود بين الأفراد، فالفرد الموجود في الولايات المتحدة الأمريكية، غير الفرد الموجود في إفريقيا وآسيا، فالولايات المتحدة تمنح للفرد الحرية الكاملة في التملك والكسب وتسمح له بإشهار هويته الفردية بكل حرية " ففي الولايات المتحدة الجديدة ذات الحدود المفتوحة تسود صورة المستثمر الفرد، وإنسان المجازفة والابتكار والربح، وقد تم التحديث في هذه البلدان خارج بعض مراكز النظام الرأس مالي بطريقة أكثر تنظيما أكثر قصرا وتسليطا "[2].

وهذه الحرية الكبيرة التي يمتلكها الفرد جعلت منه شخصا يحب التملك والكسب ويسعى جاهدا من أجل توسيع ممتلكاته، ولا تجعل منه فردا يختبئ وراء الأطر الاجتماعية المحددة ومن يخرج من هذه الأطر يعتبر آثم، وهذه الحرية إن صح القول هي مكسب كبير للهوية الفردية.

يعد الفارق العمري من أهم الأسباب لظهور الهويات الفردية " فالشباب يخلقون طابعهم المميز لحياتهم "[3]، وهوية الشباب وأفكارهم غير أفكار الكهول، يعد الشباب من الأفراد الأكثر نشاطا وفاعلية في المجتمع، وهذا ما نجده في مختلف الأحداث العالمية، حيث نجد هذه الفئة هم السباقون لهذه الأحداث، وهذا ما يثبت أنه مهما ظهرت هوية الفرد

[1]– هارمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص15.

[2]– ألان تورين، نقد الحداثة، تر، أنور مغيث، ص296.

[3]– المرجع السابق، ص37.

إلا أنه دائما مرتبط بالمجتمع " الأفراد حين يطرحون هوياتهم إنما ينجذبون إلى المعطيات الثقافية الموجودة في الشبكة الاجتماعية المباشرة لهم، وتلك الموجودة في المجتمع ككل "[1]، ومهما حاول الفرد الخروج عن المجتمع إلا أنه دائما ما يعود إلى الأفكار التي نشأ فيها دون وعي منه، وهذا ما نلاحظه مثلا في الجزائر أثناء ثورة التحرير، فمهما تأثر الفرد الجزائري بالثقافة والهوية الفرنسية، إلا أنه تظهر عليه دائما ملامح الهوية الجزائرية، وخاصة عندما استدعى الأمر الدخول في غمار الحرب حيث نجد أن السباقون للثورة هم مجموعة من الشباب الذين درسوا وتعلموا في الجامعات الفرنسية.

ورغم انتشار الهوية الفردية على نطاق واسع في العالم، إلا أن هناك البعض رفض هذا، واعتبرها تهديدا لمقوماتهم الاجتماعية، ولهذا مورست عليها بعض القيود خاصة في البلدان الاشتراكية " ففي بعض البلدان الاشتراكية جرت إدانة الفردانية وملاحقتها كراسب الوعي البرجوازي "[2]، ومن هنا نستنتج أن نظرة هذه الدول لهذه الهوية الفردية مختلفة لأنها رأتها تهديدا لقيمها ومبادئها الاجتماعية ورأتها خطرا يهدد الكيان الاجتماعي لأنها تساهم في خلق هويات جديدة لم تكن من قبل، ولهذا تظل هذه الهويات الفردية تصارع مع كل الجهات من أجل فرض وجودها خاصة في بعض الدول التي تكون فيها نسبة الحرية ضئيلة.

5. الآداب والهوية:

يعد الأدباء أو الفنانون بشكل عام من الأوائل الذين خاضوا غمار التجريب وغمار المساءلة عن الهوية بكل جرأة، وهذا ما يتردى في مختلف الأعمال الأدبية والفنية الأخرى كالرسم والموسيقى، وهذا لما منحه الفن من حرية كبيرة في التعبير، والفن لا يقيد أحد بل هو

[1]– هارمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص15.

[2]– كولد دوبار، أزمة الهويات، تر، رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت، ط1، 2008، ص84.

رمز للحرية وإبداء الرأي، ومن هذه الجرأة الكبيرة التي يمتلكها الفنانون استطاعوا طرح عدة تساؤلات حول الهوية والخوض في هذا الموضوع من دون أية دهشة.

ومن هذه الحرية التي كان يمتلكها الفنانون منذ القدم، لم يقع الأدباء في الدهشة التي وقع فيها علماء الملة، بل وجدوا في الحداثة حرية ساعدتهم على طرح مواضعهم بكل جرأة و" يبدو أن الأدباء بالمعنى الواسع هم الوحيدون الذين قطعوا شوطا خطيرا من الاحتمال القوي للحداثة، بوصفها واقعة روحية تحمل معيراتها الخاصة في نفسها "[1]، ولعل ما يبين عن شجاعة الأدباء في اختيارهم للحداثة عكس علماء الملة، لأن الأدباء اعتبروها ملجأ لهم لتعميم أفكارهم، حيث أنهم وجدوا فيها ما يوافق الأفكار التي تطرقوا إليها، وهذه الحرية في طرح الأفكار لم تكن من قبل.

استغل الأدباء هذه الموجة في مختلف المواضيع التي تطرقوا إليها عبر تكوين شخصيات تعبر عن ذلك المجتمع الذي تختلف أفكارهم وأرائهم، وسعى الروائي في هذه الحالة إلى محاولة إخراج إنسانية الإنسان من خلال التضامن والتعامل مهما وجد الاختلاف بين الأفراد " وحين يدرس الناس أرقى أنواع الأدب سيصبح مقدورهم تطوير إنسانيتهم ليصبحوا قريبين من الكمال "[2]، الأديب هو محرك الإنسان ويستطيع أن يحول أفكاره كيف ما يريد ويغير بعض المبادئ الإنسانية، والأدب شبيه بالوطن فإنه يحاول جمع الناس حول المشترك والعام، ويستبعد كل تنافر بين المجتمع الواحد، وهذا ما جعل الأدباء يتقمصون الحداثة إلى أقصى حد، فالأديب المبدع هو الذي يعرف كيف يدخل في هذه المخاطرة " إن الأدباء المبدعون قد دفعوا بعلاقتهم بالحداثة إلى أقصى إمكانها، وذلك يعني عندنا أنهم انتحلوا على ما يسكت عنه في لفظة الدهشة في العربية "[3]، إن الأدباء جعلوا من الحداثة

[1]– فتحي المسكين، الهوية والزمان، ص58.

[2]– هارمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص40.

[3]– المرجع السابق، ص59.

مبدأ لهم وخالفوا مبدأ علماء الملّة الذين أصيبوا بالدهشة والغرابة من الحداثة، ولقد سعى الأدباء إلى " اختراع آداب جديدة للتوجه في الكون، لا يحق لأي جماعة أخلاقية أو دينية أن تفرضها أو تضبطها سلفا"[1]، وبهذا تكون الآداب غير مرتبطة بأي خلفية، بل خلفيتها الوحيدة هي خلق آداب توافق حركة الحداثة، وآداب تكون في ذلك المستوى المنشود، من خلال المواضيع أو من خلال الشكل الفني، فقبل كل شيء الأديب يساهم من خلال المواضيع التي يتطرق إليها في توعية الناس وأيضا تقديم للقارئ بعض الحقائق التاريخية خاصة ما يتعلق بالهوية.

حتما إن الحداثة أعطت للأدب حرية بالغة في التعبير عن شتى المواضيع وحاولت أن تجمعها بطريقة مبدعة، والأساس منها، هو البحث فيما يجمع البشرية وهوياتهم بصفة عامة، إلا أن ما يعاب في الحداثة اقتصاد السوق الذي أتت به، إنها جعلت الأدباء يهتمون أكثر بالجانب المادي، فأخذوا يتعاملون مع الأعمال الأدبية بما يوافق متطلبات السوق وأصبح الأدب كالتجارة، يقول "سبيرجم" " إن الأعمال الرديئة هي ليست نتيجة لفقر الفنان أو غبائه وإنما هي نتيجة لكون المحرك في السوق هو الطلب وليس الفن"[2]، وهناك بعض الأعمال الأدبية التي تلقى استحسان الجمهور، لكنها لا ترقى في الحقيقة إلى ذلك المستوى العالي من الفن والجمال، وهذا ما ساهم في ظهور نقاد مختصين للتفريق بين هذه الأعمال ولا يخضعونها إلى معيار السوق، بل لمعيار الأدبية والموضوعاتية " في كل عصر هناك جالية صغيرة جدا يعتمد عليها على مدى الإعجاب بالأدب والفن، وهذه المجموعة الصغيرة كانت قادرة على تمييز الأدب العظيم من السطحي، طبقا لما تحكم به فطرتهم في الجمال"[3]،

---

[1]– فتحي المسكين، الهوية والحرية نحو أنوار جديدة، جداول لنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2011، ص10.

[2]– هارمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص30.

[3]– المرجع نفسه، ص42.

وهكذا يكون بعض الأفراد المتميزين قادرين على التفريق بين الجيد من الآداب ورديئه، ومثل هؤلاء لم يقتصروا على زمن معين، أي في زمن الحداثة فحسب، بل أن في كل زمان مختصين يفرقون بين الأدب الحق والأدب الرديء.

رغم وجود التنوع الأدبي في عصر الحداثة (الرديئ، الجيد) إلا أن هذا لم يمنع أن يكون لبعض الأدب مكانة عالية في هذا العصر، لأنه عصر التنوير والتأويل، فكان هذا التنوع الأدبي يتطرق إلى المواضيع بطريقة غير مباشرة وعلى القارئ أن يقوم بتأويل ما يقوله الكاتب والنص.

هكذا إذا حاول الأدباء صناعة أدب يخدم العام قبل الخاص ويتطرق إلى مواضيع اعتبرت طابوهات في زمن مضى، خاصة في مسألة الهوية، التي تعتبر مسألة حساسة للغاية، لكن الأدباء بحنكتهم وجرأتهم استطاعوا أن يتطرقوا إلى هذه المواضيع بكل جرأة وشجاعة، رغم بعض المضايقات من طرف جماعة أو أخرى.

6. الإقصاء والإرغام:

رغم ما حملته الحداثة من ايجابيات، والتي بدورها حررت العقل البشري وأعطت له مجال واسع للتفكير، إلا أن هذا لم يمنع هذه الحداثة في أن تحمل في طياتها بعض السلبيات، التي تتمثل في سياسة الإقصاء والإرغام التي تنتهجها الدول خاصة المستعمِرة، التي غالبا ما تسعى إلى إقصاء الدولة المستعمَرة، وهذه السياسة غالبا ما تصنع فوضى عارمة في مختلف البلدان في العالم، خاصة أن هذه السياسية لا تقتصر على الدول المستعمِرة والمستعمَرة، بل تنتهجها في بعض الأحيان السلطة الحاكمة في البلاد، وهذا بسن قوانين تعسفية تقصي جماعة دون الأخرى.

يؤدي هذا الإقصاء إلى القيام بأفعال لاعقلانية، والتي تصل في بعض الأحيان يصل الأمر حتى إلى ظهور الجماعات الإرهابية، وهذا ما حدث في التسعينات في الجزائر عندما أقصى حزب جبهة التحرير الوطني حزب جبهة الإنقاذ الإسلامية " وتؤدي عملية إقصاء بعض الجماعات الاجتماعية إلى انعدام الإحساس بالأمن الخاص بالهوية، والذي من شأنه أن يعزز من مظاهر النزعة العدوانية، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بهوية، ذات طابع سلبي تحت تأثير الوسط الاجتماعي "[1]، وبهذه العملية الاقصائية التي تمارسها السلطة الحاكمة والتي تكون لديها القوة في التشريع وسن القوانين، يشعر الإنسان بالذل ويفقد ثقته بهذه المؤسسات التي تسير الأوطان أو العالم بصفة عامة.

وهذا الإقصاء أو الإرغام نتج عنه كثيرا العنف الهووي الذي تشهده معظم دول العالم، وهذا الاختلاف في موازين القوى قاد العالم إلى نشوب حربين عالميتين وعندما " أخذت الدول الأم تفرض نفسها تدريجيا وصفا شكلا مسيطرا مسبق لنحن التطويعية، وقد سمح اختراع النزعة القومية، بصورة خاصة بشرعنة الهوية القومية، كشكل هوياتي مسيطر أدت هذه الحركة في القرن العشرين إلى حربين عالميتين كانتا الأكثر دموية في التاريخ "[2] معظم العنف الهووي الذي شهده العالم أجمع، كان سببه الأول عملية الإقصاء، فلا يمكن أن نقصي جماعة أو فئة أو بلد على حساب بلد، ففي الأساس أنه " ما من هوية تتفوق بالمطلق على هوية أخرى، وما من إيديولوجية تتمتع بالقوة التي تحولها استبعاد سائر الإيديولوجيات على الساحة "[3]، والهوية مهما كانت مختلفة المظاهر ومختلفة التوجهات والأحكام، إلا أنه علينا فقط أن نستعين بمبدأ تقبل الآخر رغم وجود الاختلاف، سواء اختلاف في المعتقد أو في المظاهر الثقافية، أو اللغة، أو حتى الإيديولوجيات.

---

[1]– أليكس ميكشللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص14.

[2]– كولدا دوبار، أزمة الهويات، تر، رندة بعث، ص56.

[3]– داريوش شايغن، هوية بأربعين وجه، تر، حيدر نجف، ص39.

والهوية في الأساس، كما أشرنا إليه في التعريف الخاص بالهوية، هي متغيرة وغير ثابتة، ويصعب الإمساك بها، فكيف بنا أن نرغم أفراد أو مجموعات كاملة على تقمص هوية بدون الإحساس بها والشعور بها " الهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد إنما حقيقة تولد وتنمو، تتكون وتتغير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية، والاستلاب "[1]، وعليه يمكن القول أن الهوية تكون مع الإنسان منذ نعومة أضافره فهي إحساس بالوجود، فكيف إذا تقوم هذه المؤسسات بمحاولة انتزاع هذه الهويات وإقصائها، وأي محاولة إقصاء أو فرض تؤدي بالضرورة إلى صراعات داخلية وأخرى خارجية وهذا ما ينتج بدوره أزمات الهوية.

ومن هنا نقول أن على الدول محاولة جمع كل هذه الهويات المختلفة المتواجدة في الدولة الواحدة ومحاولة إعطاء كل ذي حقٍ حقه دون انتقاص من شأن الآخر أو إقصائه، فلا يعني أنه عندما يسعى الفرد للدفاع عن هويته، وإبرازها أن يحمل في ذهنيته أنه يجب أن يقصي الآخر لكي تظهر هويته، فهذا المنطلق غير صائب، لأن الوطن للجميع، فالأحرى بالفرد أن يعمل على إظهار هويته لكن دون المساس بهوية الآخرين أو محاولة إقصائها لكي لا تحدث أزمات وصراعات أخرى بين المجتمع الواحد.

7. الإغتراب:

رغم ما وصل إليه الإنسان من تقدم وازدهار وحركة علمية، إلا أنه دائما ما يشعر بالغربة والوحدة، رغم أن العالم أصبح قرية ويستطيع فيها الناس أن يتواصلوا في غاية السهولة واليسر، إلا أن هذه الحركة السريعة للعالم جعلت الإنسان يفقد أصالته وهويته.

ومن هذه الغرابة التي أصيب بها الإنسان المعاصر، لم تعد هويته مستقرة في بعض المقومات، بل أصبحت مجزأة تتجزأ في كل يوم، وفي كل حين، يرى "بومان" "أن الهوية،

[1]– أليكس ميكشللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص7.

أصبحت مجزأة ليس فقط مجزأة بل أيضا لم يعد لها أساس ثابت فهي ببساطة مسألة اختيار، وهي اختيار ليس بالضرورة أن يكون منسجما ومنتظما فالأفراد يستطيعون تغيير هويتهم متى أرادوا "[1]، وهذا التجزؤ الرهيب في الهوية جعلنا نشهد كل يوم ظهور فئة تطالب بمجموعة من الحقوق كالشواذ جنسيا مثلا الذين يطالبون بحقوقهم، ولولا المرض الذي أصاب العالم، وهذا الاغتراب لما ظهر مثل هؤلاء المخالفين للطبيعة البشرية المعروفة والعادية.

أدى هذا الاغتراب إلى مجموعة من السلوكيات التي امتازت بالعبثية واللااستقرار على مستوى الفكر والهويات، وهذا ما نجده خاصة عند الفلاسفة، الذين يطرحون العديد من الأسئلة التي تشكك في صحة الكون وصحة الخالق، وهذا ناتج بالدرجة الأولى عن هذا الاغتراب الهووي الذي يشهده العصر بحيث " يؤدي فقدان الهوية أي الاغتراب إلى ردي فعل متضادين مثل العزلة والانطواء والعنف "[2]، ومثل هذا الانطواء والعزل عرفه معظم الفلاسفة خاصة الوجوديين منهم، ويبدوا أن هذا الأمر لم يقتصر على الفلاسفة فحسب، بل إنه امتد إلى معظم الناس الذين فقدوا هوياتهم في هذا العصر و" في المجتمعات ما بعد الحداثة الناس لا يجهدوا أنفسهم من أجل خلق هوية معينة، فهم كالسائح يبحثون عن خبرة جديدة فإستراتجية الحياة لما بعد الحداثة تتطلب محاولة اختيار هويات جديدة كنماذج"[3].

الإنسان بهذه الطريقة يستطيع أن يتقمص أي هوية يريد وأن يتخلى عنها متى يريد، وهكذا لن يبقى لمعنى الهوية أي قيمة، فالفرد يستطيع أن يكون هو في وقت ما وأن يكون الآخر في وقت آخر، ويستطيع أن يكون ذا شخصيتين في الوقت نفسه، وهذا ما يسمى بتجوال الهوية " وفي عالم ما بعد الحداثة، أصبح هناك معنى التجوال من هوية إلى أخرى

[1]– هارمليس وهولبرون، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص102.

[2]– حسن حنفى، الهوية، ص25.

[3]– المرجع السابق، ص103.

دون الاستقرار في أي منها، إن المجتمع ما بعد الحداثة جعل إمكانية الاستقرار بالغة الصعوبة"[1].

ولعل تغير العالم والحركة السريعة هي التي جعلت الإنسان يكون بهذه الطبيعة وأن يفقد هويته، ويشعر بالغربة وعدم الاطمئنان، ورغم ما وصل إليه العالم، ورغم المناصب التي يصل إليها الإنسان، إلا أنه في بعض الأحيان هذه المناصب تجعل الإنسان " يفقد هويته تحت تأثير المعايير الخاصة بالدور والبروتوكولات التي تسيطر على الفرد أو الجماعة "[2]، فالأدوار التي يتقمصها الإنسان في المجتمع تجعل منه فاقدا لهويته، وهذا بفعل ما تقتضيه الظروف والقوانين الإدارية، ولا بهذه الأعمال بمحبة وصدق.

وبهذا تكون الهوية مهددة بالزوال في هذا العالم المريع، الذي لا يعترف إلا بالمال والجاه ويشعر الإنسان بالوحدة والغربة رغم كل هذا التطور الاقتصادي، وعلى الإنسان أن يحافظ على هويته لأنه " من يفقد هويته يفقد قدرته على الحركة والنشاط وتتغير طاقته التي تحركه ويعتزل الناس في حالة انكماش وانقياد وتقلص "[3]، إن حركة الإنسان في آخر المطاف جد مرتبطة بالهوية فمن لا هوية له تكون حركته منعدمة ولن يكون له أي أثر في هذا العالم.

ومن هنا نقول إن على البشرية استعادة بعض الموروثات القديمة من أجل الحفاظ على هويتها، في ظل هذا المرض الذي أصيب به العالم وهو الاغتراب الذي أفقد البشرية كل إحساس بالهوية والانتماء.

---

[1]– هارمليس وهولبرون، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، ص102.

[2]– أليكس ميكشللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص130.

[3]– حسن حنفى، الهوية، ص25.

وفي الأخير وعلى ضوء كل ما سبق ذكره، نقول إن هوية الإنسان تكمن أهميتها في ذلك التنوع الموجود في الهويات المختلفة: ثقافيا، دينيا، وسياسيا، وعلى الإنسان فقط فهم هذا الاختلاف لكي لا يدخلوا في جدال الهوية الذي لا مخرج منه، وفي الأخير يقود الناس إلى ذلك العنف الهووي الذي نشاهده في العالم أجمع من حروب أهلية، فتقبل الآخر أهم شيء يجعل الناس يكفوا عن جدال الهوية وتلك المشاكل التي تخص بالهوية وكل ما يأتي منها من عنف وإقصاء وكل ما يجعل الناس ينتفضون من أجل الدفاع عن الهوية أو هاجس الهوية خاصة عند العرب الذين هم مرضى بهاجس الهوية.

الفصل الثّاني:

التّاريخ وحدّ الهويّة في رواية "أنا وحاييم"

المبحث الأوّل:

التاريخ في روايـــــة

"أنا وحاييم"

1. قصة اليهودي حاييم والأنساق المضمرة :

تعد قصة اليهودي حاييم وصداقته مع أرسلان، القصة الإطار في المتن الروائي في "أنا وحاييم"، حيث ركز الحبيب السائح فيها على هذه العلاقة بين طفلين منذ الصغر حتى مرحلة ما بعد التخرج من الجامعة، ووصف السائح تلك العلاقة بأنها قائمة على مبدأ التعايش وتقبل الآخر، فلم يعق الواحد منهم الآخر، ولم يتقطع ذات بينهما، رغم الاختلافات العقائدية الموجودة بينهما، فصور لنا الكاتب هذه الصداقة وقدمها كأحسن مثال يحتذي به، وضرب من ضروب تقبل الآخر رغم اختلاف الإيديولوجيات.

إن الكتابة في موضوع اليهودي حاييم نابع عن قناعة أدلى بها السائح، ولكن هذا لا يمنع من الإقرار بأن هناك أنساق مضمرة داخل القصة، وتسريب هذه الأنساق قد حدث بوعي من الكاتب وقصد منه، وأحيانا أخرى بغير وعي، حيث وجد الكاتب أو السارد نفسه مقحما في مواضيع لم يكن ينوي أن يكتب فيها، وهذا ما يشبه التداعي الحر للأفكار المعتمد في المنهج النفسي، "وخصوصا في ما يتعلق باعتماد التداعي، الذي يبدو تداعيا حرا، ووسيلة لسرد مختلف المواد الحكائية وغير الحكائية في الرواية "[1]، فهذا التداعي جعل السارد يتطرق إلى مواضيع حساسة لها أهمية لا تقل عن سابقتها، فقد تخلل هذا النص مجموعة من الأنساق يمكن للقارئ أن يستخلصها بنظرة فاحصة متأنية.

1.1. ردّ الاعتبار لليهود الذين سكنوا الجزائر:

يحاول الحبيب السائح رد الاعتبار لليهود الجزائريين من خلال شخصية حاييم، وهذا في ظل مشكلة الهوية التي تعاني منها الدول العربية عامة، والجزائر خاصة، وهذا ضمن أطر الحداثة والعولمة، وذلك بالاستفادة من البعد التاريخي الذي كان يميزه التعايش والتسامح الديني الذي عرفه المجتمع الجزائري قبل فترة الاستعمار.

[1]– صلاح صالح، سرد الآخر، ص71.

تعد هذه الصداقة ثمرة التعايش الأسري الذي كانت تعيشه العائلتان، وهذا ما يتضح لنا من خلال هذا المقطع "يومئذ، تغذى حاييم معي في بيت جدتي ربيعة، وكان الغذاء طبقين من دجاج محمّر ببطاطا مقلية وكسكس بالزبيب والرايب، حضرتهما خصيصا لنا بالمناسبة، وتعشيت مع حاييم في بيتهم عشاء من طبق زيتون بلحم الأرنب حضرته أمه زهيرة "[1]، ويبرز من خلال هذا القول البعد الاجتماعي الذي يتمثل في التواصل والمجاورة بين العائلات الجزائرية باختلاف مللهم، حيث إن هذا التسامح خلق جوا من التعايش الدائم مما مكن الجزائريين من العيش بسلام، فقد كان الجزائري يقدر حق الجار، ويكن له الاحترام وهذا ما جعله يعيش في سكينة وأمان وهذا ما يتضح من خلال قول السارد: " أمس فقط كنا ندخل داري عائلتينا العامرتين، جدتك وأمي تتزاوران وتتبدلان أطباق الأكل والتحيات والتهاني في عيد الفطر كما في يوم كيبور، نأكل الطعام التقليدي نفسه، ونلعب، ونمرح "[2].

ومن صور التعايش أيضا بين المسلمين واليهود قبل الاستعمار، هو احترام الطقوس الدينية وتبادل الأطباق خلال المناسبات " إني لا أنسى أيضا مناسبة المولد النبوي، والديك المعروف بريش نوار الفول الذي ذبحه لنا موشي بو حاييم، ونصف الديك نفسه مع الرقاق الذي أوصلته في صحن الفخار لخالتي زهيرة "[3].

2.1. استعادة الذاكرة المضادة أو إعادة كتابة التاريخ:

1.2.1. رد الاعتبار للفئات المهمشة: لقد ربط الروائي قصة أرسلان وحاييم بالثورة التحريرية وما بعد الاستقلال، ويبدو أن قصد الكاتب من وراء ذلك هو الكشف عن بعض الأمور الغامضة، وتصحيح بعض المرجعيات التي أصبحت راسخة في المخيال العقلي الجزائري، وأصبح الحديث عن هذه الأمور أمرا محظورا ومحرما في ظل حكم

[1]- الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص36.

[2]- المصدر نفسه، ص146.

[3]- المصدر نفسه، ص108.

السلطة، ولعل من أبرز هذه الأمور إعادة الاعتبار للفئات المهمشة التي شاركت في الثورة الجزائرية والتي لم تسلط عليها الأضواء وذلك بحسب كل شخصية وموقعها الاجتماعي.

حيث إن هناك العديد من الأشخاص صنفوا ضمن العملاء في المخيلة العامة، ولكن السائح صور لنا العكس وهذا ما يتضح من خلال قوله:" أعرف يا بني، لأن السيد سانشيز متعاطف مع الأنديجان من اليهود والمسلمين، قال أبو ماكس يومها "[1]، وهذا ما يوضح تعاطف بعض الفرنسيين مع القضية الجزائرية وفي قوله أيضا:" أتذكر وصية والدي عشية سفري إلى ثانوية معسكر: "في الفرنسيس رجال أحرار وعادلون لا تنسى هذا" "[2]، فهذه الشريحة من المجتمع الفرنسي كانت متعاطفة مع المجتمع الجزائري وقضيته رغم تواجدهم هنا بمعية المستعمر الفرنسي.

ومثل هذه الفئة لا يتم الإشارة إليها في التاريخ المعروف، ويتضح هذا الأمر في قول السائح مثلا:"يا لك أنت ! هذا مبلغ اشتراكي الأخير. سلمه إياه. لا تتهيب. فقد حدثته عنك."[3] وهذا دليل على أن حاييم من الطائفة اليهودية التي كانت تقدم المبالغ الاشتراكية للثورة ومساعدة جبهة التحرير الوطني لشراء مستلزماتها، فلم يكن المسلمون الجزائريون وحدهم فقط من يدفع هذه المبالغ، لأن هناك وثائق تثبت بأن هذه الطائفة ساهمت بمبالغ مالية لفائدة الثورة حيث أن هناك " قوائم بأسماء من كانوا يدفعون له اشتراكات دعم الحرب. وأخفيت عنها دهشتي إذ قرأت اسميكما أنت وحاييم ومقابلهما مبلغ كل منكما. وطلبت منها أن تخبئ كل تلك الأوراق "[4].

لم يكن حاييم الشخصية اليهودية يقدم فقط اشتراكات الحرب، وإنما قد سخر صيدليته لتكن مخبئا أو مخبرا لتضميد جروح المجاهدين والمسبلين، فزليخة عند إصابتها برصاصة

[1]- الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص16.

[2]- المصدر نفسه، ص22.

[3]- المصدر نفسه، ص171.

[4]- المصدر نفسه، ص181.

ذهبت مباشرة إلى الصيدلية وهناك " وجدت حاييم في انتظارها. أدخلها المخبر وربط على ساعدها ضمادة لإيقاف النزيف. ثم تكلم في الهاتف. بعد حين حضر ممرض لم يكن من الأهالي خاط جرحها الذي تطلب ثلاث غرز. وهمس، كأنه يخبر الواقف عليها برباطة ملأتها ثقة، أنه من حسن الحظ أن العظم لم يصب "[1].

وفضلا عن تلميح السائح إلى دور اليهود في حرب التحرير، أشار كذلك إلى طائفة من الشيوعيين الأوربيين الذين تعاطفوا مع القضية الجزائرية وساهموا في حرب التحرير كل حسب مقدرته وكيفية مساعدته، فقد صرح حاييم على لسان السارد: "أن بعض الأدوية يجلبها من غير تسجيل لأنه يعرف مسؤولا شيوعيا من الأوربيين في الصيدلية المركزية لا يخفي تعاطفه مع القضية هو الذي يتواطأ معه "[2].

ومن الشخصيات الأكثر تهميشا في التاريخ الجزائري والتي لها كل المرجعيات التهمية وكل أنواع الحقد والغل شخصية القايد، حيث شكلت هذه الشخصية نقطة سوداء في المخيلة العامة، وكانت توجه له أصابع الاتهام في كل مناسبة لما تحمله هذه الشخصية من امتيازات لدى السلطة الفرنسية على حساب الأهالي، واستغلال بعض القياد هذا المنصب في التسلط وفرض كل أنواع البطش على الأهالي مما شكل تلك الصورة السيئة في الذاكرة العامة حول شخصية القايد الذي أصبح كل من ينتسب إليها منبوذا لدى أفراد المجتمع قبل الاستقلال وبعده.

تعرّض الحبيب السائح في "أنا وحاييم" لموضوع القايد وأعطى صورة أخرى لشخصيته من خلال الحديث عن "القايد حنفي"، فرغم كل ما يتصف به هذا القايد من وقار وسلطة، إلا أنه لم ينس واجبه نحو وطنه، ويتضح هذا من قول السائح:" بينما كان غالبا ما أرسل عثمان إلى هذا الفلاح أو ذاك بمبلغ مالي يساعده على تسديد ديونه اتجاه البنك أو على تخليص

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص182.

[2]– المصدر نفسه، ص189.

رهن، وأنه، لما يقوم به المغامرون من أعمال خارجة عن القانون، لن يسكت عن أحد في محيط منطقته صعد إلى الجبل ليحمل السلاح؛ وكان، من حين إلى آخر، يرسل ليلا معونات إلى أكثر من عائلة في الريف يعرف أن رجالها التحقوا بجيش التحرير "[1].

إن هذا النّص من شأنه أن يوضّح لنا أن ليس كل من يحمل هذه الرتبة (القايد) فهو متسلط ومنتهز للفرص، ولكن منهم الشرفاء والأوفياء لقضايا وطنهم، حيث ساهموا في خدمة بلدهم، فقد كان مثل هذا القايد (المنور حنفي) عين جبهة التحرير الوطني وأذنها في تلك المنطقة لما كان يقدمه من خدمات للأهالي وللجبهة نفسها، ولعل أبرز ما يظهر طهارة هذا القايد وصفاء روحه، موته في البقاع المقدسة بعد ذهابه إلى مكة لتأدية مناسك الحج فكانت وفاته ودفنه هناك مكافئة لما كان يسديه من خدمات لوطنه وشعبه، فكان قدره ومصيره " أن لا يعود من حجته من مكة "[2].

لقد تم رد الاعتبار لهذه الشخصيات في نص "أنا وحاييم"، وهذا لكسر المرجعية الثقافة والتاريخية لدى المجتمع الجزائري، فقد حاول السارد إيصال فكرة أن في هذه الأمة وتاريخها كل واحد يعبر عن نفسه، ولا يمكن إصدار أحكام مطلقة أو تعميم القوانين على جميع فئات المجتمع وشرائحه، ففي مرحلة الثورة الجزائرية كان كل واحد يمثل نفسه، فمثل هذه الأخطاء والمغالطات أحدثت خلل بالمنظومة الفكرية لدى الإنسان الجزائري، وشكلت مرجعية يشوبها الضباب، في الكثير من القضايا التاريخية والثورية.

وفي السياق السابق نفسه يقول الحبيب السائح معترفا:" يسترجعون بمزيج من الغبطة والحسرة، وجوه أوروبيين غادروا؛ من أولئك الطيبين الذين لم يظهروا تجاههم عنصرية أو أقدموا على إهانتهم أو إذلالهم أو قتلهم لأتفه الأسباب مثلما فعله غلاة الكولون من الأقدام

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص191.192.

[2]– المصدر نفسه، ص195.

السوداء "[1]، فهذا النص يبين مثل سابقيه أن هناك من الأوروبين من تسامحوا مع الجزائيين، وعاملوهم على أساس الإنسانية دون الرجوع إلى اعتبارات مختلفة والخضوع لها ، وهذا ما ترك أثرا على نفسية الأهالي في ظل غياب هذه الشريحة البشرية العادلة.

2.2.1. الإشارة إلى أخطاء جبهة التحرير وأتباعها: إن من الأنساق المضمرة التي حاول السائح الإشارة إليها في هذا النص، هي جملة الأخطاء والمغالطات التي قامت بها جبهة التحرير الوطني، سواء في حق الشعب (الأهالي) وفي حق البلاد والأرض، وهذا من خلال تأسيس هذه الجبهة وجعلها حزبا حاكما للبلاد منذ الاستقلال إلى غاية يومنا هذا، وبالرغم من أن هذه الحركة في بداياتها كانت تسعى إلى تحرير البلاد واسترجاع السيادة والسلطة للشعب الجزائري، إلا أنها لم تخل من الأخطاء التي أفقدتها مصداقيتها والثقة التي وضعها الشعب فيها، وهذا ما حاول الكاتب قوله عبر التلميح إليه حينا والتصريح به حينا آخر.

لمجرد إعلان نهاية الحرب وبزوغ فجر الاستقلال، تسارع بعض الأهالي وبعض قادة جبهة التحرير الوطني إلى سرقة أملاك الكولون والأوروبيين والسطو عليها، فأحدثوا الفوضى وانتشر النهب والاعتداء بمختلف أنواعه، وهذا ما يتضح في قول السائح:" حدث ذلك بينما كانت بيوت الأقدام السوداء والأوروبيين والكولون الذين غادروا أو تخلفوا تتعرض، من أطراف المدينة كما في القرى، للمداهمة والنهب والاعتداء، وفي الحين، كانت أولى دوريات ج.ت.و. قد خرجت من بعض مدارس المدينة ومن ثكنة كوموندو جورج، سابقا، وانتشرت على الأقدام السوداء، بالسلاح في اليد، عند منافذ المدينة الرئيسية من الجهات الأربع وفي الأحياء الكبرى."[2].

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص252.

[2]– المصدر نفسه، ص222.

يتضح لنا من خلال هذا القول بأن كل الممتلكات والبيوت الخاصة بالأوربيين تعرضت للسطو، وهذا هو الطابع الذي تميزت به هذه العناصر من الأهالي والجبهة، في حين أن أغلب الأهالي في القرى والمداشر كانوا يعبرون عن فرحتهم بالاستقلال من خلال السير ليلا نهارا، وزغاريد النساء لمدة تفوق أسبوع كامل عن إعلان الاستقلال، أما هؤلاء فكانت مهمتهم الإغارة على الأملاك والمنازل والمزارع وكل ما يتعلق بالأوروبيين والكولون.

لقد شبه الحبيب السائح بعض أفراد حزب جبهة الحرير الوطني باللصوص، كما لمح إلى الخطورة التي ستصدر عنهم خلال فترة حكمهم، وهذا في مثل قوله:" كنت سأقول هذا أيضا لغيركم وأنا على شرفة البلدية. لابد أنكم ستعرفون كما ترون لصوصا آخرين من نوع آخر أكبر وأخطر"[1]، وفي هذا إشارة إلى خطورة أعضاء حزب جبهة التحرير الوطني وسياستهم المستبدة في كل المجالات التي أضحت لا تعود بالنفع والفائدة على المجتمع، لم يكن هذا فحسب، إنما مس التخريب كل الآثار التاريخية التي تؤرخ للحقبة الاستعمارية، ومن بين هذه المعالم الصليب الضخم الذي كان يعبر عن سياسة التنصير التي كان المستعمر يحاول نشرها، وتم تحطيمه من طرف عناصر "ج ت و" وهذا ما أشار إليه السائح في قوله: "هناك من الفج، ذاك الصليب الضخم لا يزال مرشوقا في قمة الجبل وهو لم يعد اليوم موجودا لأنه نزع وردم في مكان مجهول وإلى أسفله، في السفح، حربية حراسة من الحجر المنحوت بطابق أول وأربع كوى مفتوحة على الجهات الأربع للتسديد "[2].

كانت تلك الآثار بمثابة شاهد عيان على مرور الاستعمار، وهذه الانتهاكات كانت من بين الجرائم الكبرى التي ارتكبت في حق المعالم الأثرية التي كانت ستؤرخ للحقبة الاستعمارية، كما تعرّضت، بالإضافة إلى ما سبق، بعض المرافق العمومية التي تركها المستعمر للتلف، ولو تركها على هيئتها لعادت على الشعب بالنفع والفائدة ولكنهم لسوء

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص226.

[2]– المصدر نفسه، ص233.

الحظ " نسفوا المسرح، وأتلفوا مخازن الحبوب "[1]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أدت هذه الفوضى والعبثية إلى نشوب " المواجهة الأهلية بين إخوة السلاح، حسب ما كان يتناقل من أخبار عن الصدمات المسلحة بينهم في بعض مناطق البلاد، للسيطرة على الحكم "[2].

وهذا من أجل الحيازة على السلطة والتحكم بمقاليد الحكم، وكان القتل والاغتيال المدبر، وتصفية الحسابات والانقلابات العسكرية من أهم الحلول التي لجأ إليها أعضاء حزب جبهة التحرير الوطني، فقد تمت الإطاحة " برئيس الجمهورية الفتية في التاسع عشر من جوان. قبل إحدى عشر شهرا من الآن "[3]، وقد كان الرئيس هواري بومدين وراء الانقلاب العسكري الذي حمل اسم التصحيح الثوري في 1965.06.19.

ومن المنشآت التي طالها الهدم، الصرح الديني اليهودي فقد كانت البيعة مقر إقامة الشعائر الدينية عند اليهود، من بين الأهداف التي وضعها عناصر "ج و ت" نصب عينيه لتخلص منها وهذا ما يتضح في قول السارد: " ظهرت جهته الغربية مهدمة ومعها البيعة في طور التفكيك. كان ذلك لتوسيع ثكنة اللفيف الأجنبي التي دخلها جيش التحرير"[4]. يتضح لنا من هذا القول أنه لم تسلم من الهدم حتى العمارة الدينية، حيث تم التطاول على المقدسات، لأن البيعة رمز للمقدس الديني عند يهود الجزائر، وزوال مقدساتهم يعني زوالهم ومحاولة طمس هويتهم.

لقد كانت لسياسة هذا الحزب عواقب وخيمة على المجتمع الجزائري، وذلك في مختلف المجالات، بسبب أن مخططاته تميزت بالعبثية واللامبالاة، وتفتقد إلى منظومة تتحكم بها. لقد كان أغلب المسؤولين يسعون إلى تحقيق مصالحهم الخاصة على حساب المصالح العامة دون مراعاة المبادئ الرئيسية المنصوص عليها في الثورة، وهذا ما يتضح لنا من

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص252.

[2]– المصدر نفسه، ص ن.

[3]– المصدر نفسه، ص321.

[4]– المصدر نفسه، ص271.

خلال قول الكاتب:" مثلما أعرف كيف تحول عن وجهاتها المساعدات الإنسانية المرصودة للمحتاجين. وأعرف من استولوا على الفيلات في المدينة تركها أوروبيون بما فيها، في الوقت الذي يحتاج فيه البلد والمدينة خاصة إلى التضامن والعمل للانتصار على الفوضى والفراغ !"[1] وهذا ما يوضح لنا درجة مكر هؤلاء المسئولين وخيانتهم لمبادئ الثورة وقرارات مؤتمراتها، وتجدر الإشارة إلى أن هذه القرارات لم تكن عفوية ومحل الصدفة، لكنها كانت مدبرة ومرسومة الخطة من طرف متهافتين على السلطة كانوا خارج الوطن إبان الثورة ودخلوا غداة الاستقلال باسم جبهة التحرير الوطني.

لقد أراد الحبيب السائح من خلال توضيح هذه النقاط، إظهار الوجه الآخر لحزب جبهة التحرير الوطني ونفي صفة القدسية عنه والتي سعت السلطة إلى ترسيخها في المخيال العام، فالتطرق إلى موضوع مثل هذا أضحى عندهم من المحرمات والممنوعات، وقد لمح السائح إلى الفكرة التي فحواها أن المكان الذي يليق بجبهة التحرير الوطني هو متحف المجاهد الذي يحفظ لها كرامتها، واستغلال أعضاء الحزب والسلطة الحاكمة هذا الاسم يلطخ سمعة الشهداء، الذين ضحوا بالنفس والنفيس من أجل تحرير الجزائر ويعيش الشعب في كنف الحرية والكرامة .

3.2.1. أدبية الثورة: إن الكتابة عن الثورة الجزائرية ليس بالأمر الهين بسبب تحوّل هذه الثورة الشعبية أو الحركة التحريرية إلى رمز للنضال والمقاومة لدى الشعوب المضطهدة كافة، ولما لشخصياتها وبطولاتهم من الوزن الثقيل في ساحة القتال أو في الساحة السياسية.

كما أن الكتابة الأدبية عن القضايا الثورية والتعمق فيها يفقدها قيمتها الأدبية، ويصبح النص (وثيقة تاريخية) أكثر مما هو عمل أدبي، ولهذا كانت الرواية الجنس الذي حمل عن عاتقه الكتابة عن هذه المواضيع، فقد سعى كتاب جيل ما بعد الاستقلال إلى إعادة تفحص

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص288.

هذا التاريخ والكتابة في المجال الثوري، وقد تناول أغلب الكتاب التجريبيين، قضية الثورة الجزائرية بطرائق مختلفة في سرد الأفكار وبنائها، وطريقة الوصف، ومن هؤلاء الحبيب السائح الذي يسعى في جميع أعماله إلى العودة إلى هذا التاريخ ومساءلة أحداثه، وشخصياته، وقد أخذ السائح في هذه المساءلة بعين الاعتبار"واقع الحال والتجربة التاريخية والقومية المتاحة"[1]؛ أي العمل على أن يكون التاريخ خادما للواقع المعاش، والاستفادة من الأحداث الماضية، وعدم الوقوع في المتاهات والأخطاء التي وقع فيها أسلافنا.

يمكن القول إن السائح في رواية "أنا وحاييم" قد استطاع أن يقدم الثورة الجزائرية ويمررها باعتبارها نسقا مضمرا داخل قصة اليهودي حاييم، ولكن بطريقة أدبية، فلم يستعمل المصطلحات التاريخية، لأن الثورة تنتمي إلى الحقل المعجمي التاريخي، فقد استعمل جملة من المصطلحات الأدبية: صعاليك الشرف، المغامرين، صباح عيد الأموات، ليلة عيد الأموات، إرهابي جبهة التحرير، جنود اللفيف الأجنبي، رايات النجمة والهلال، ألبسة الجبل، وغيرها من المصطلحات التي تدل على الثورة الجزائرية.

ويبدو أن الكاتب سعى من وراء هذه الاستعمالات إلى كتابة التاريخ بطريقة أدبية وملأ الثغرات التي لم ينتبه لها المؤرخ أو حاول طمسها متعمدا ذلك متأثرا بالتوجه السياسي الذي ينتمي إليه. كما يمكن للأديب أن يكتب التاريخ بنكهة خاصة بعد سرد الأحداث والوقائع التاريخية التي حدثت حقيقة مع إضافة عنصر الخيال والتشويق الذي يميز العمل الأدبي، وهنا يمكن أن نقول بأن الروائي يبحث عن حقيقة الحقيقية وهي الحقائق التاريخية، أي الأحداث المركزية والمهمشة.

لم يركز الحبيب السائح على المصطلحات الأدبية في سرد نسقه التاريخي (الثورة) وحسب، إنما طال الأمر الشخصيات الثورية أيضا، وهذا بصرف نظره عن الشخصيات المعروفة والمركزية التي تجعل من الرواية التي تتحدث عن الثورة الجزائرية مبتذلة، وإنما

[1]– جورج لوكاش، نظرية الرواية وتطورها، تر، نزيه الشوقي، دمشق، ط1، 1987، ص11.

استعان بشخصيات نمطية، عادية، وهذا بهدف رد الاعتبار لكل العناصر والشخصيات التي شاركت في الثورة الجزائرية، كما أراد، فضلا عما سبق، أن يشير إلى أن هناك شخصيات قد قامت بالثورة التحريرية وشاركت فيها بفعالية ولكن السلطة همشتها عبر مزيفي التاريخ، وهذا لم يمنع الروائي من ذكر بعض الأسماء المهمة في المقاومة الشعبية ممن " تركوا بصمة أو أثرا لدى مرورهم بها، الأمير عبد القادر والجينرال بيجو، وعن كاتب شهير طالما ولعت به لاكتشافي في إحدى مطالعاتي الصيفية، أن قدميه، عشرينيات القرن التاسع عشر الأخيرة، كانتا وطئتا منطقة اليعقوبية، خلال عبوره نحو السهوب بحثا عن المرابط بوعمامة قائد الأهالي ضد الغزو "[1].

لقد كان الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، والشيخ بوعمامة بمثابة رموز للنضال، فقد ترك كل واحد منهما بصمة خاصة به في المنطقة التي كافح فيها، وذكر السائح بالإضافة إلى ما سبق، شخصية مهمة في الثورة التحريرية " فقد طالعت في صدى وهران قبل ثلاثة أيام مقالا يذكر في لهجة ردعية بتنفيذ أول حكم إعدام بالمقصلة في سجون بربروس الرهيب في حق أحمد زبانة المسؤول الحربي لمنطقة زهانة "[2].

ولا شك أن السائح حين ذكر هذه الشخصيات بأسمائها الحقيقية، كان يسعى إلى رد الاعتبار لها وتمجيد بطولاتها، وكذا رد الاعتبار لمنطقة الغرب الجزائري التي طالتها العديد من الشكوك حول مشاركتها في الحرب التحريرية والثورة المسلحة، فذكر كل هذه الأحداث والشخصيات المهمة على الصعيد التاريخي ليس إلا تأكيدا على حضور منطقة الغرب الجزائري في الثورة .

2. تاريخ اليهود ومدى تأثيرهم في الجزائر:

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص266.

[2]– المصدر نفسه، ص140.

يعد اليهود من الأقليات في العالم، وهم في بدياتهم الأولى عبارة عن مجموعات ثقافية ودينية يتشكلون من قبائل صغيرة جمعهم التوحيد بالله، واختلف العلماء في سبب تسميتهم باليهود، وقد كان الدين المرجعية الأساسية وأحد الركائز الهامة التي تقوم عليه الطائفة اليهودية، ولكن هذا لم يمنع اليهود من الاختلاط والتمازج الكلي أو الجزئي بمن جاورهم حيث أثروا بثقافتهم وتأثروا بثقافة المناطق التي استوطنوا فيها، وحتى بعد رحيلهم من منطقة ما، يمكن أن نلاحظ بعض الآثار الجزئية التي تدل على استقرار اليهود في تلك المنطقة.

لقد تمت الهجرات اليهودية إلى شمال إفريقيا بعد حملات اضطهاد متتالية تعرض لها اليهود، وكان سبب هجرتهم إلى منطقة شمال إفريقيا هو الاحتماء في هذه المنطقة المعروفة بتضاريسها الوعرة فكانت لهم درعا واقيا، وبمجرد نزولهم في منطقة شمال إفريقيا ظهر بعد مدة تأثرهم بالحضارة العربية وثقافتها، وهذا ما أدى إلى استعرابهم، حيث" اكتشف جزء من اليهود في الجزائر خصائص الحضارة العربية وأصبحوا عربا، لاسيما قبل دخول الاستعمار الغربي الذي فرنس الكثير من يهود المناطق الشمالية في الجزائر، واليهود المستعربة جزء ممن نطلق عليهم اليهود الشرقيون"[1].

يتضح لنا من خلال هذا القول بأن يهود الجزائر تأثروا باللغة العربية والثقافة الجزائرية، حتى لا يمكن لشخص لا يعرفهم التمييز بينهم وبين المسلمين نظرا لتمكنهم من اللغة العربية، ونطقهم السليم لها، ويظهر هذا الأمر مثلا في "أنا وحاييم" في قول السارد:" إن عائلة بن ميمون التي نزحت من مدينة الأغواط بعد احتلالها في بداية المنتصف الثاني من القرن الماضي، كما حدثني حاييم عنها ذات مرة، كان لسان أفرادها مستقيما وسليما في الأصوات العربية، مثلهم مثل بقية اليهود الأهالي في جهات ومدن أخرى "[2].

[1]– أحمد حسن سميح إسماعيل، اليهود في المغرب العربي، ص68.

[2]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص30.29.

وقد كانت اللغة أولى المحطات التي شكلت محط الاهتمام لدى اليهود، وهذا راجع إلى أهمية اللغة في العلاقات الاجتماعية، وفي المعاملات التجارية خاصة باعتبار أن اليهود يحتلون فيها مكانة متميزة.

لم تكن اللغة وحدها هي العنصر الوحيد الذي تأثر به اليهود في الجزائر، فقد شكلت العادات والتقاليد روح الثقافة اليهودية ومقومها، فبعد التجانس بين الطائفة اليهودية والمسلمين حدث ما يسمى بالتشابه الكلي في العادات، وقد لاحظ الحبيب السائح ذلك في أعراس اليهود والمسلمين المتشابهة وخاصة " في مراسم موكب العروس يوم زفها إلى بيت العريس مشيا أو في هودج أو على ظهر دابة "[1]. يتضح لنا من خلال هذا القول التجانس التام بين اليهود والمسلمين نتيجة التعايش والتجاور الذي كان بين الطائفتين ومدى قوة التأثر بالآخر الذي يفرض الانصهار والذوبان فيه.

1.2. موقف اليهود من الاحتلال الفرنسي للجزائر:

بعد أن تمكن اليهود من تحطيم الاقتصاد الوطني من خلال الديون والرشاوي والولاء للفرنسيين، تمكنوا من التحكم في مراكز القرار والمؤسسات السياسية، ويظهر ذلك في "أنا وحاييم" حين قال السارد: " غلاة الأوروبيين والأقدام السوداء من أحفاد المهاجرين الأسبان والإيطاليين والمالطيين واليهود أيضا المستفيدين من قانون التجنيس ومن الامتيازات التي يحضون بها مقابل حال الأهالي المزرية البائسة، هم الذين، في الإدارة وفي الاقتصاد والزراعة وفي مؤسسات البوليس والجيش والجامعة، كما نرى ذلك منذ شهور، يتصدرون الآن جوق قرع طبول الحرب التي يريدونها شاملة لا تبقي ولا تذر"[2].

كان اليهود حسب هذا النص يسيطرون على مختلف المناصب بعد دخول الاستعمار، وهذا ما جعلهم يؤيدون احتلال الجزائر خوفا على مصالحهم وممتلكاتهم، ولقد رحب اليهود

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص40.

[2]– المصدر نفسه، ص132.

بفكرة المستعمر عن طريق تأييد الفرنسيين، ونشر الهلع والخوف بين المسلمين الجزائريين أو الأتراك، كما ساند اليهودُ الفرنسيين في تجريد المسلمين الجزائريين من ممتلكاتهم وأراضهم وساعدوهم في ذلك بسبب معرفتهم بأسرار البلاد وأمورها الإدارية والمالية مثل أجهزة الضرائب وغيرها من المؤسسات المالية.

كما أن ترحيب اليهود بالاستعمار كان من أجل الثأر من الدولة العثمانية التي كانت تعامل اليهود معاملة خاصة، وكانت تفرض عليهم الجزية؛ أي أن اليهود عاشوا طيلة حياتهم بالجزائر ذميين، وهذا هو الأمر الذي استهجنه اليهود ولم يتقبلوه، فكان موقفهم إيجابيا من الاستعمار الذي حفظ لهم بعض الحقوق وقدم لهم الجنسية الفرنسية التي تجنس بها اليهود دون أي تفكير، وقد عبر السائح عن هذه الأفكار حين قال:" وازداد ترحيب الجماعة اليهودية في مدينة الجزائر بالاحتلال الفرنسي، وارتدوا القلنسوات الحمراء التي كان العثمانيون قد حرموها عليهم، في الشوارع راكبين البغال، وكان ترحيبهم بالفرنسيين إما خوفا أو طمعا في العنصر المحتل "[1].

وكان الهدف من ميل اليهود إلى المستعمر الفرنسي والاحتماء به هو الحفاظ على دينهم ولغتهم، لأن العثمانيون كانوا يفرضون عليهم الجزية التي من خلالها يشترون الحماية (النسب، العرض، الدين)، ورغم هذا استولى الخوف على اليهود، مخافة أن يضيع دينهم مع مرور الزمن وهذا ما جعلهم يرحبون بفكرة المستعمر ويظهرون الولاء له، فكان هذا الترحيب بمثابة ثأر من العثمانيين الذين كانوا يمارسون كل أنواع الاضطهاد على الطائفة اليهودية وهذا ما يتضح في قول السارد: " لأن العثمانيين هنا، كانوا يهينون أجدادنا باعتبارهم ذميين لهم عليهم حق الحياة نفسه، وكانوا يفرضون عليهم الجزية، ويلزمونهم بلبس أثواب ذات ألوان

[1]– أحمد حسن سميح إسماعيل، اليهود في المغرب العربي، ص160.

صفراء ثم خلص إلا أنه يكفينا مع النصارى أن نحافظ على ديننا ولغتنا، كما ينادي بذلك رجال الدين المسلمين في البلد أيضا "[1].

إن التجنيس استنادا إلى النّص السابق، هو الحل الوحيد الذي بقي أمام اليهود للحفاظ على سلامتهم وسلامة لغتهم ودينهم، وكذا نفض غبار الذمية الذي لازمهم لمدة طويلة من الزمن، وكذا التخلص من العنصرية والاحتقار الذي كانت تفرضه عليهم الدولة العثمانية، هذه أسباب وأخرى جعلت اليهود يهرعون إلى التجنيس ويرحبون بفكرة احتلال الجزائر.

2.2. تركيبة يهود الجزائر:

1.2.2. يهود السفارديم: هم اليهود الإسبان الذين استقروا على بعض الجزر الإسبانية، ولكن بعد الفتح الإسلامي تم طردهم من هناك واستقر بهم المقام في السواحل الشمالية الإفريقية، وهذا ما جعلهم يحتكون مع البلاد العربية والإسلامية مما ولد التأثر في كل المجالات " واندمج اليهود السفرديم في البلاد الإسلامية في طريقة الحياة واللغة والملابس والطعام، وكثير من النواحي الثقافية والاجتماعية حتى الخصائص الديمغرافية تشابهت "[2].

إن هذا التشابه في الخصائص الثقافية والاجتماعية أفرز بدوره خاصية التعايش والتسامح الديني، ومن خلال هاتين الخاصيتين حافظ يهود الجزائر على سلامتهم وسلامة دينهم ومعتقدهم، ما مكنهم من البقاء في الجزائر إلى غاية مرحلة ما بعد الاستقلال، كما اتضح لنا أيضا أن تأثر اليهود التوشاقيم بالثقافة العربية والانصهار الكلي فيها قد بلغ درجة تبني العديد من العادات والتقاليد وطرق العيش المختلفة على عكس يهود الاشكانز.

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص206.

[2]– أحمد حسن سميح إسماعيل، اليهود في المغرب العربي، ص160.

2.2.2. يهود الاشكانز: هم " يهود شرق أوروبا ووسطها، تغلب عليهم صفات الخرز وصفات سكان وسط أوروبا، وتركز الاشكانز في الحوض الشمالي لنهر الراين، وتفرعوا إلى مجموعات مفترقة عديدة وإلى سلالات مختلفة "[1]، ولقد تميز هذا النوع من اليهود بالتحرر والتشبه بالحياة الأوروبية في كل المجالات، الثقافية والاجتماعية، وهذا ما جاء على لسان السارد مخاطبا إحدى الشخصيات في قوله: " لأنكم أشكيناز فأنتم تعتقدون أنفسكم مثل الأوربيين ! فقط لأنكم لبستم لباسهم وتعودتم عاداتهم ! "[2].

لقد تلون الاشكانز بالعادات الأوروبية لدرجة عدم التفرقة بينهم وبين الأوروبيين نظرا لتأثرهم الكبير "عكس الاشكناز الذين كنت أراهم، وأنا صغير، في الدرب يلبسون الأسود غالبا ويطلقون سوالفهم ويضعون الكيبا على رؤوسهم قبل أن يختفوا تدريجيا "[3]، وفي قول السائح أيضا: " أما البقية فقد هاجروا أو صاروا مندمجين كليا في الحياة الأوروبية "[4].

يكشف السائح في هذا القول عن تأثر يهود الاشكانز بالحياة الأوروبية على عكس يهود السفارديم الذين تأثروا بالحياة العربية الإسلامية، ومنه نتج تياران مختلفان من حيث الثقافة والعادات، وهذه الاختلافات بين الطائفتين خلقت حواجز بينهم (طبقية ومحسوبية) وهو ما أدى إلى اتساع الهوّة بينهم، ولكن رغم كل هذه الاختلافات، إلا أن العامل الديني العامل الجامع والركيزة الأساسية التي قامت عليها القومية اليهودية وهو ما يجعلهم يتوحدون تحت لواء واحد.

3.2. أثر اليهود في الجزائر:

[1]– أحمد حسين سميح إسماعيل، اليهود في المغرب العربي، ص160.

[2]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص259.

[3]– المصدر نفسه، ص158.

[4]– المصدر نفسه، ص ن.

لقد تأثر اليهود بالمسلمين الجزائريين، ولم يكن العكس وهذا بحكم عدد اليهود الذين وفدوا إلى منطقة شمال إفريقيا والجزائر خاصة، ويمكن القول بأن يهود الجزائر كانوا يهود الديانة والمعتقد، أما من الناحية الثقافية فهم جزائريون، حيث تلونوا بألوان الثقافة الجزائرية وانصهروا في عاداتهم وتقاليدهم، وهذا بحكم التعايش الذي كان بين الطائفتين.

ونجم عن التعايش بين المسلمين واليهود في الجزائر تأثيرات بسيطة تركها اليهود في الجزائر مثل بعض الأطباق (كرانتيكا) وغيرها من المأكولات التي بقيت راسخة نتيجة العلاقات الاجتماعية بين العائلتين، وتبقى هذه التأثيرات بسيطة على خلاف ما يدعيه البعض الذي يرجع الموسيقى الأندلسية (النوبة) في أصلها إلى اليهودية، حيث إن المؤرخين أثبتوا أن الموسيقى الأندلسية هي موسيقى عربية وروحها إسلامية وبحور شاعريتها عربية، فاليهود بحكم احتكاكهم بالعرب في الأندلس أثناء هجرتهم إليها، وكذا هجرتهم إلى الجزائر مع المسلمين بعد سقوط الأندلس، تعرفوا على هذا النوع من الموسيقى وطوروا بعض أصنافه ووضعوا لمستهم فيها، حيث برز العديد من الفانين اليهود في هذا المجال، وقد أثر الاحتكاك الموسيقي بين اليهود والمسلمين وكذا تبادل الخبرات والمواهب من شيوع هذه الموسيقى في الجزائر وإقامة مدارس خاصة ومعاهد تشجع على المحافظة على هذا المكسب التاريخي والإرث الهام مثل (المدرسة الغرناطية).

إن العلاقات الأخوية والصدقات الحميمية، التي تربط الفنانين الجزائريين (المسلمين) بنظرائهم اليهود في مختلف مناطق العالم بحكم العامل التاريخي الذي خلق أواصر صداقة ومحبة، جعل كل من الحاج الطاهر الفرقاني وحمدي بناني وعبد القادر شاعو يصرّون على المحافظة على العلاقات الأخوية الموجودة مع نظائرهم من اليهود وأصدقائهم في الوسط الفني الذين جمعتهم بهم المنطقة (الجزائر، عنابة، قسنطينة) التي عرفت التعايش بين اليهود والمسلمين.

ومما يؤكد تأثر اليهود بموسيقى المسلمين ما جاء على لسان كوالدا لحاييم:" أجدادك قبلك لبسوا العباية والبرنوس والحفاظ وصباط زيط زيط مثل الأنديجان، وغنوا غنائهم، وتكلموا لغتهم، وفتلوا الكسكس وأكلوه بأيديهم مثلهم قبل أن يعرفوا الملاعق "[1]، وفي هذا القول دليل على تأثر اليهود بالموسيقى العربية الإسلامية، ولكن هذا لا يمنع من وجود بعض التأثيرات اليهودية على المجتمع الإسلامي الجزائري مثل الوشم الذي تضعه المرأة في مختلف الأماكن في جسدها، أضف إلى ذلك بعض سلاسل التزيين التي تصنع من القرنفل، وغيرها من المظاهر الثقافية التي تثبت وجود الطائفة اليهودية بالجزائر.

3. الإشادة بدور المرأة:

لقد قام السائح بتثمين دور المرأة والإشادة به، وهذا ما يجعل المرأة نِدًّا للرجل، حيث لم يصور المرأة على الهيئة المبتذلة المعروفة، ولم تقتصر مشاركتها في الحرب على الطهي والغسيل والأعمال البسيطة، وإنما جعل لها مكانة مرموقة جعلتها تسمو إلى مصاف البطولة والشهامة فلم تمنعها أنوثتها ومشاكلها من القيام بدورها في الجهاد إلى جانب الرجل، ولعل شخصية زليخة أحسن مثال صور من خلالها السائح المرأة الجزائرية المحاربة والشجاعة التي كانت مثالا حيا عن المرأة التي ضحّت بالنفس والنفيس من أجل قضيتها الوطنية، وهذا ما يتضح لنا في قول السارد:" كنت ألاحظ ذلك، فأنا نفسي، لرؤيتي زليخة في زي الجنديات الذي لبسته غداة التحاقها بعد تنفيذها عملية ضد المفتش آلان بورسييه وعلى وجهها برغم التعب صرامةُ المحاربة، أحسست كأن شيئا ما أحد يتغير في عواطفنا جميعا، وكنت رددت في داخلي، وأنا أتابعها مرة في حصة تدريب على الالتحام تطعن فزاعة بحربة بندقيتها، أنه ليس طبيعة مقصورة على ذكوريتنا نحن أهل هذا البلد أن تكون المرأة حافزا نفسيا في الدفاع عن الشرف حتى الموت "[2].

---

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص259.

[2]– المصدر نفسه، ص177.

نستنتج من هذا النص أن دور المرأة قد تم تغييره في الأعمال الروائية الجديدة، عكس "الآداب العربية القديمة، شعرية وسردية، كانت تموج بصورة المرأة الجارية التي اقتصر دورها على تقديم المتعة للرجل، فهي موضوع للذته، وتحتل الحيز الخاص بالمتع وما يتصل بها"[1]، ففي الأعمال السردية القديمة كان دور المرأة مقتصرا على خدمة الرجل وكانت وسيلة لإشباع غرائزه الجنسية، ومنجبة للأولاد فحسب، ولكن تغير الوضع حين أضحت المرأة عنصرا فعالا في المجتمع، وهذا ما قام به السائح وهو إشراك المرأة (زليخة) في الحرب، وإعطائها دورا بطوليا وحماسيا إلى جانب الرجل (أرسلان) وهنا تبرز تيمة المشاركة لا التبعية، "فلا يستقيم حال المرأة بوصفها فاعلا اجتماعيا إلا بعد تخطي هيمنة الرؤية الذكورية للعالم، وقبول الرؤية الأنثوية بوصفها رؤية مشاركة وليس تابعة، فالمشاركة غير التبعية "[2].

لقد تخطى السارد كل الأطر الاجتماعية والمرجعيات الثقافية التي كانت تنظر إلى دور المرأة وقيمتها داخل المجتمع خاصة في حقبة ما قبل الاستقلال، وهذا نظرا للسلوكيات اللاعقلانية واللاإنسانية التي كانت تعامل بها المرأة، لكن في هذا النص تم تسليط الضوء على المرأة المثقفة والمتعلّمة ودورها في تحرير الشعب ليس من الاستعمار فحسب، ولكن من كل سبل الجهل والتضليل وهذا عن طريق التوعية والتدريس، فقد كانت تخصص وقتا لتقديم دروس تسعى من خلالها إلى القضاء على الأمية، وهذا ما أشار إليه السارد في قوله: "وتقديم حصص محو الأمية التي صارت تخصصها للجنود الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، مخففة عني بعض عبئي"[3]، وهذا ما يظهر مكانة زليخة في الجبل، فلم تكن محاربة بالسلاح فقط، إنما حاربت أيضا بالقلم، وربما كانت مسؤوليتها أكبر نظرا للأعمال التي أسندت إليها بالمقارنة بالجنود الذين كانوا معها في الكتيبة.

---

[1]– عبد الله ابراهيم، المحاورات السردية، منشورات الاختلاف، الرباط، ط1، 2011 ص61.

[2]– المرجع نفسه، ص61.

[3]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص177.

ونعتقد أن هذه الصورة التي قدمها السائح عن المرأة الجزائرية المجاهدة أراد بها أن يكشف عن الوجه الآخر لها، ويخرجها من الصورة المعهودة، حيث وضعها في صورة مرموقة لا تقل أهمية وقيمة عن أخيها الرجل.

4. الجدة رمز التاريخ والذاكرة الحقيقية:

لعبت شخصية الجدة دورا مهما في النص الروائي "أنا وحاييم"، حيث سلط السائح الضوء على هذه الشخصية وجعل لها مكانة هامة، كما أخرجها من دورها المألوف والعادي، بأن رقاها إلى أن تكون الذاكرة الحية للأمة وحقيقتها، والرمز الشامخ للتاريخ، وهذا ما يتضح في قوله:" لأني ظللت أتصور ذاكرتها تشبه خزانة مخطوطات قديمة، أن تفرز لي واحدة من حكايات كثيرة تروي عن تأسيسها لم ينسجها خيال سكانها "[1]، ولعل مثل هذه الأمور مما يجعل الجدة مرجعا تاريخيا هاما، يمكن الوثوق به، فهي شخصية عالمة بكل الحقائق التاريخية.

لقد تميزت شخصية (الجدة) في "أنا وحاييم" بتحكمها في العديد من الأحداث، وكانت أحيانا نقطة تحول القصة والحدث، وهذا راجع لعلمها بالحقائق الكاملة ومجرى الأحداث، ويتضح هذا لأمر مثلا حين قال السارد:" كل الأراضي الخصبة التي تراها الآن ملكية الكولون كانت سلبت من أهالينا "[2]، وكانت الجدة تجاري أرسلان في التلاعب بأحداث القصة، لأنها تمس الوتر الحساس ألا وهو التاريخ.

إن هذه الجدة بمثابة خزانة مذكرات وأرشيفات تكتنزها في ذاكرتها وتسترجعها متى تطلب الأمر ذلك، بالإضافة إلى معرفتها بالأحداث والوقائع التاريخية، فهي واحدة من تلك النسوة اللائي رسم عليهن الدهر وخطى التاريخ كل أنواع الكتابات لتخزنها هي بدورها في

[1]- الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص102.

[2]- المصدر نفسه، ص103.

مخيلتها، بالإضافة إلى مختلف العادات والتقاليد التي بقيت ترتبط بها وتتشبث فيها لتكون رمزا للأصالة والعراقة، ومعبرة عن مقومات الأمة وكيانها.

5. التحدي:

لقد كان التحدي من أهم الخصوصيات التي يرتكز عليها الحبيب السائح أثناء كتاباته الروائية، فهذا التحدي هو الذي يخلق له التجديد في الكتابة السردية، وهذه السمة برزت بقوة في كل أعماله خاصة "كولنيال الزبربر" والعمل الأخير "أنا وحاييم"، حيث تحدى السلطة السياسية ونظام الحكم في الجزائر، وذكر بأن الحكم في أيادي الجنرالات ويتضح لنا ذلك في قوله " لا بد من انتظار اتضاح الرؤية، ولو أني أعتقد أن العسكر لن يسلموا، منذ اليوم، السلطة لغيرهم "[1]، كما أنه فضح مسؤولين في حزب جبهة التحرير الوطني كانوا يتسترون وراء الحزب باسم الثورة، فكان يشير إلى فئة الاستغلاليين الانتهازيين الذين كانوا خارج الوطن وبعد الاستقلال عادوا وكأنهم خاضوا الحرب مع الأهالي وهذا ما يتضح في قول السارد: " كيف يدري من لم يخض الحرب هنا في الداخل ومن لا يملك كفاءة، ولا معرفة لمواجهة ما ترتب عن مغادرة الأوروبيين، ليس في المزارع وحدها ولكن في القطاعات كلها"[2].

فقد تحدى القدسية التي يحملها حزب جبهة التحرير الوطني وزعزعها، وفضح كل من ينهب باسم الثورة والشهداء، كما تحدى المؤرخين بهذه الأعمال الروائية التي يمكن اعتبارها بمثابة سندات ومراجع تاريخية وهذا ما يتضح في هذا المقطع " وها أنا أتخيل كل طالب يجلس أمامي أرسلان الذي كنت أمام أولئك الأساتذة الأوروبيين ينتظر مني أن أسمعه

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص321.

[2]– المصدر نفسه، ص287.

خطابا آخر مختلف عما كنت أسمعه طيلة مساري الدراسي، أقدم له تاريخا آخر غير الذي علمته، وأدبا مختلفا، وأثمن لديه الذكاء والمهارات وحب المهنة "[1].

ولعلّ السبب الذي أدى إلى الفكرة التي بثها السائح في هذا النّص هو أن المؤرخ الجزائري ليس مستقلا في كتاباته، وإنما يؤرخ فقط لما يكون في خدمة السلطة والنظام، فلم يكن المؤرخ الجزائري مستقل وحر في كتابته للتاريخ، وإنما كان يجب عليه دائما الانصياع إلى القوانين التي يفرضها النظام الحاكم وهذا ما يتضح لنا في هذا المقطع " نحن الذين نكتب تاريخ هذا البلد، نحن الذين نقرر مستقبله"[2]، حيث إن المؤرخ يغفل عن بعض الحقائق، وهناك حقائق يهمشها والبعض الآخر يحاول طمسها لعدم خدمتها للمصالح الخاصة (السياسية)، فالحبيب السائح تحدى هذه الفئة التي تقوم بسرد الأحداث ليقوم هو بالتقصي عن الحقيقة وإضافة عنصر الخيال على العمل الفني، وهنا يكون وصل إلى حقيقة الحقيقية.

دخل الحبيب السائح، زيادة عما سبق، في غمار تحد آخر لفئة من الروائيين حيث إنه ليس الوحيد الذي تطرق إلى قضية التاريخ الجزائري وقضية المأساة الوطنية، ولم يكن أول من عالج قضية اليهود فقد سبقه إلى ذلك واسيني الأعرج بكتاباته حول اليهود، إلا أن الحبيب السائح عرف كيف يربح هذا التحدي فقد استطاع تقديم صورة أخرى لليهود الجزائريين من خلال شخصية حاييم بن ميمون، كما استطاع أن يجذب القارئ ويشده إليه من خلال طريقته في الكتابة.

لم يتوقف الحبيب السائح عند هذه النقطة في كون التحدي موجه نحو السلطة والمؤرخين والأدباء، وإنما تحدى نفسه أيضا وهذا في كتاباته التي تتميز بالاختلاف، فكل عمل من أعماله له بصمته الخاصة به، ولعل هذا ما أدى بالسائح إلى نفي التناص حتى

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص306.

[2]– المصدر نفسه، ص290.

بين أعماله، مما يجعله متميزا في كل عمل جديد، على خلاف بعض الروائيين الذين يعرفون بنوع واحد من الكتابة.

المبحث الثّاني:

الهويـــّة في روايـة

"أنا وحاييم"

1. تجلي عناصر الهوية في رواية "أنا وحاييم":

تعددت المفاهيم الخاصة بالهوية في مختلف المعاجم ومختلف الآراء، لكن الكل يتفق أن مفهوم الهوية مرتبط بالنفس والشعور، فهو شعور داخلي قبل كل شيء ويزرع منذ الصغر قاصدا ذلك أم لا، فالهوية شعور يعيش في نفسية الإنسان منذ نعومة أظافره، ولكن بدون أن يشعر بذلك، إلا أن هذا الإحساس يطفو إلى مستوى الشعور بتحفيز من الظروف والأحداث التي تطرأ في حياة الإنسان، وهذا الإحساس بالهوية منذ الصغر لمسناه عند أرسلان وحاييم "فأرسلان وحاييم تشبثا بهويتهما منذ الصغر"[1]، وأدركا، وهما طفلان صغيران، أنهما من هذه الأرض، وأنهما ينتميان إليها، وهذا ما نجده في نبرة التحدي الموجود لديهما منذ أن كانا في الابتدائية.

بعيدا عن هذا الشعور الموجود في نفسية أرسلان وحاييم وارتباطهما بهويتهما ارتباطا شديدا، أضاف الحبيب السائح إلى الشعور بالهوية شيئا ملموسا حاول تأكيد صحته والبرهنة عليه بالدليل الملموس، والدّفاع عنه باعتباره بعدا أساسيا من هوية هذين الطفلين، حيث اتجه السائح نحو الأسبقية الزمنية والتاريخية ليبرهن عن الهوية الحقيقة لهذين الطفلين وهذا أثناء تجولهما مع حسيبة في الجزائر، فقالت لأرسلان إن "هذا المكان يخبئ أسرارا أخرى عمن مروا من هنا من أجناس المحتلين الآخرين قبل الفرنسيين"[2]، وهكذا يؤكد الحبيب السائح أن كل ادعاءات فرنسا بأن الجزائر فرنسية ما هي إلى كذبة، فحتى الأحجار تشهد وتقول أن الجزائر جزائرية وفرنسا ما هي إلى بلد مستعمر كباقي البلدان الاستعمارية ويوما ما سيغادر كما غادر الأولون.

---

[1]– محمد سمير ندا، أنا وحاييم، وثيقة إنسانية عن الجزائر الثورة، ووديوس كوم، https//:www.mohamad samir nada.wordopress.com

[2]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص98.

أشار الحبيب السائح في هذه الرواية إلى ذلك التنوع الذي يميز المجتمع الجزائري قبل الثورة وإبانها، وأشار بالتحديد إلى فئة اليهود وأراد أن يؤكد أحقيتهم بهذه الأرض وهذا الوطن وأنهم كباقي الأهالي الآخرين، وأن اليهود جزء من هذه الأرض، "فقد عرفت أرض الجزائر في أغلب مناطقها يهودا شكلوا جزءا من تعدادها السكاني من الشمال إلى الجنوب "[1]، ولهذا اختار الحبيب السائح فترة الثورة ليتحدث عن فئة اليهود، باعتبار أن الثورة من أهم المراحل التاريخية التي عرف فيها الشعب الجزائري تلاحما وتماسكا، رغم الاختلاف في المعتقدات والأفكار، فكل الفئات الاجتماعية تلاحمت من أجل عدو واحد يريد أن يغتصب الأرض، ومن بين هذه الفئات نجد اليهود الذين حاربوا المستعمر الغاشم ودافعوا عن هذه الأرض كما دافع باقي الأهالي، وعلى لسان حسيبة أثبت الحبيب السائح أحقية حاييم بهذه الأرض وهويته الجزائرية حين قال:" ليس هذا فقط، فجذورنا من هذه الأرض "[2]، وبهذا الاعتراف من حسيبة يؤكد حاييم وجوده وأنه جزء من هذه الأرض.

وللأرض وزن كبير في إثبات الهوية، ولطالما كانت من العناصر الهامة التي تثبت هوية فرد معين أو مجتمع بأكمله، وهذا مثل ما نجده في مختلف الروايات التي تتعلق بالقضية الفلسطينية التي تربط قضيتها دائما بالأرض، وهذا من أجل إثبات الفلسطيني أحقيته بأرضه، وفي هذا السبيل سار الحبيب السائح ليثبت لنا أن حاييم من هذه الأرض وهويته مرتبطة بها، وأكد هذا عن طريق المواقف المختلفة لحاييم اتجاه أرضه، فرفض الذهاب إلى فلسطين وتخلى عن حبيبته "كولدا" من أجل هذه الأرض " فقلت له إلى أين تريدينني أن أغادر؟ هذا وطني، هنا ولدت وولد أبائي، وأخلاط جسدي من تربة هذه الأرض

[1]– واسيني الأعرج، حاييم أو سيرة اليهودي الطيب، القدس العربي،2018،
https//www.alquds.com

[2]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص100.

وفيها أدفن مثل أبائي "[1]، وبهذا يكون حاييم أكد هويته وأكد أن اليهود لا تربطهم أي علاقة بالأوروبيين والأقدام السوداء، فهم جزائريون متأصلون في عمق هذه الأرض.

رغم أن نهاية الرواية تبدو حزينة بموت حاييم، إلا أنها بمنظور آخر نراها وكأنها تحقيق لقول حاييم وتأكيد له، وهكذا يؤكد الحبيب السائح أن اليهود بصفة عامة وحاييم بصفة خاصة، من هذه الأرض وأنهم جزائريون أبًا عن جد.

والهوية تتحقق بوجود ظروف تجعلها تطفو إلى مستوى الشعور وتتأكد من خلاله، كما "تتجسد الهوية في سلوكات الأفراد وطقوسهم الحياتية "[2]، وهذا ما سنستنتجه في باقي التحليل، ويؤكد الحبيب السائح أن الهوية لها ارتبطات كثيرة، فهناك الهوية الفردية، وهوية المواقف، وهذا ما يظهر في بعض المواقف التي عاشها أرسلان مع وحاييم.

أما أهم مفهوم أعطاه الحبيب السائح في هذه الرواية للهوية، هو ذلك الارتباط العميق والتمسك الكبير بالأرض، فالأرض هي العنوان الحقيقي للهوية، فلهذا اختار الحبيب السائح فترة الثورة ليؤكد هذا المفهوم من خلال التضحيات التي قدمها كل الجزائريين بدون استثناء من أجل نيل الحرية والاستقلال

2. التشابه الثقافي في رواية "أنا وحاييم":

تطرق الحبيب السائح في هذه الرواية إلى الأمور المتشابهة في الثقافة الجزائرية والتي ساهمت في تعزيز التلاحم بين أبناء هذا الوطن، ولهذا ركز كثيرا على ما في الثقافة التقليدية

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص 162.

[2]– فريدة إبراهيم، تمثلات الهوية في رواية "أنا وحاييم" للجزائري الحبيب السائح، العربي، 2020، http :s//www.alraby.com

من أمور حياتية ومن مآكل ومشارب، "وما يضفي حسا شعبيا لهذا العمل هو الإشارة إلى التقاليد و أنواع المأكل والألبسة فضلا عن المفردات الخاصة بالبيئة الجزائرية "[1].

أظهر لنا الحبيب السائح في هذا العمل التقارب الموجود بين العائلات الجزائرية المسلمة واليهودية أثناء الاستعمار الفرنسي فاستعرض لنا التشابه في العادات في كلتا الطائفتين المختلفتين دينيا، والمتشابهتين تقريبا في كل الجوانب الحياتية.

من المعروف عن النساء المسلمات أنهن يلبسن لباسا محتشما ساترا للعورة، وهذا نجده عند اليهود أيضا، فحاييم قال لأرسلان أن أمه " كانت لا تنقصها غير الملحفة مثل جدتك وأمك"[2]، فكان اللباس جد متشابه بين هاتين الطائفتين، وكما أن العائلة المسلمة تسعى إلى الحفاظ على هويتها من خلال الحفاظ على هيئتها في الشوارع، وهذا لإثبات الوجود من جهة، وتأكيد تميزهم وعدم انتمائهم إلى عالم الأوروبيين والأقدام السوداء من جهة أخرى ، رغم أنهم يمثلون الأقلية التي تمشي في الشوارع، وهذا ما يجعل عملية تمييزهم تتم دون أدنى عناء، وقد لاحظ أرسلان هذا الشيء في إحدى الشوارع حين قال:" فتتخللهن إلا نادرا امرأة من الأهالي المسلمين ترتدي الملحفة أو الحايك، لباسها التقليدي في الخروج، أو رجل في لباسه التقليدي"[3]، وعلى هذه الشاكلة سارت العائلة اليهودية التي كانت حريصة على الحفاظ على وجودها في الأماكن العامة وفي أماكن تواجد الفرنسيين، "وسطهم يهود من التوشاقيم، نساء ورجال تميزهم من الأقدام السوداء والأوروبيين، لباسهم التقليدي يكاد لا يختلف عن لباس المسلمين"[4].

---

[1]– كه يلان محمد، أنا وحاييم مساءلة الثورة روائيا، meo، meo.https//middle-easte-online.com

[2]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص77.

[3]– المصدر نفسه، ص157.

[4]– المصدر نفسه، ص158.

يتضح من النصوص السابقة أن التشابه بين المسلم واليهودي جد متقارب من خلال المحافظة على ثقافتهم التقليدية، ولا يتوقف التشابه عند حدود الملبس فحسب، بل حتى المأكولات المختلفة لها دور في الحفاظ على الهوية، وهذا من خلال المحافظة على الأكل الذي ينص عليه الدين، فأرسلان وحاييم كانا يرفضان تناول لحم الخنزير في المدرسة، وكانا دائما ما يتأكدان من عدم تقديم لحم الخنزير في المطاعم قبل الدخول إليها وهذا ما يتضح لنا عندما دعى أرسلان صديقه حاييم إلى المطعم "ودعوته إلى الغداء في مطعم مغارة علي بابا بشارع بن ميموني لاطمئناننا إلى أن صاحبه اليهودي لا يقدم لحم الخنزير "[1].

وعلى الرغم من أن أرسلان وحاييم ينتميان إلى الطبقة المثقفة التي سايرت الحداثة بكل أطوارها، إلا أنهما يحاولان دائما المحافظة على أصولهما، ولعل مما ساعد على هذه المحافظة هو ارتباطهما الشديد بالعائلة وطقوسها من مأكل ومشرب، فيرون تبعا لهذا مأكل مدرستهم الداخلية على أنه سم لعدم موافقته لما اعتادوا عليه في بيت عائلتيهما " كنا نجد تلك الأطعمة غسيلا حقيقيا لجهازينا الهضميين ومصلا لتنقية دمنا من مخلفات ما كنا نتسمم به في داخلية ثانوية معسكر مثلما فاكه أحدنا صاحبه"[2].

كان التشابه بين المسلمين واليهود إذن تشابها كبيرا في كل عاداتهم المختلفة من ملبس ومأكل ومشرب، وحتى في طرائق الاحتفال في الأعراس والمناسبات، ولعل هذا مما ساهم في خلق تلك العلاقات المثالية الخالية من أي صراع ديني الذي كان " يثبت لنا العلاقة بين العائلتين اليهودية والمسلمة علاقة مثالية متطهرة من كل ما يوحي بالاختلاف، وليس هناك اختلافات ولا صراع، هناك تشابه في المأكل والمشرب والعادات "[3]، وهذا ما يؤكد أن اليهود ليسوا غرباء عن هذه الأرض، وأن هويتهم ملتصقة بهذه الأرض، فالتاريخ

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص128.

[2]– المصدر نفسه، ص161.

[3] آمنة بلعلى، زحام الأنساق في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح، كلمات، http://kalimates.com

هو الذي يتحدث بنفسه ويؤكد أنهم جزء من هذه الأرض ومساهمتهم في تحرير هذه الأرض لا تقل شأنا عن مساهمة المسلمين.

3. الحداثة في رواية "أنا وحاييم":

تعد الحداثة من الخلطات السحرية التي غيرت مجرى العالم وأعطت له منظور آخر غير الذي كان عليه حين اكتسحه العقل والتصنيع، وأعطيت الحرية للفكر الإنساني في النقاش وطرح مواضيع كانت من المحظورات والطابوهات في ما مضى.

أعطت الحداثة للشيوعيين حرية في طرح أفكارهم رغم أنهم دائما ما يجدون متعصبين من هنا أو هناك، وهذا ما يحدث لـ. أرسلان " فسلين ظلت الوحيدة من بين طلبة الفلسفة التي تدافع عن النقشات الفكرية كلما شب خلاف بيني وبين بعضهم من المسيحيين المتعصبين، حول الخلق من العدم ونشأة الإنسان ومصدر المعرفة "[1]، فهذه الحرية في طرح الأفكار وفي المؤسسات الحكومية بالتحديد، ما كانت لتكون لولا هذه الحرية التي منحتها الحداثة للإنسان لطرح أفكاره بكل حرية ودون قيود.

رغم هذه الحرية الكبيرة التي قدمتها الحداثة للإنسان، إلا أن للحداثة أمور إيجابية وسلبية، فمن سلبيات الحداثة هذه الحركة الاستعمارية التي خاضت فيها دول الكولون والإدعاءات المرافقة لها قصد تبرير فعلتها الدنيئة، حيث إنها تدعي بأنها تريد تخليص هذه الشعوب من الظلام الذي كان يسودها وتحويل هذه الشعوب إلى شعوب متقدمة ومتطورة، لهذا تظهر لنا دائما مجموعة من الطلبة الفرنسيين يدافعون عن هذه الحركة الاستعمارية "فإن طلبة آخرين من دخلوا الكفيتيريا كانوا دفعوا بقناعتهم الممجدة للاستعمار بصفته حركة تاريخية لإخراج الشعوب المتخلفة من مرحلتها البدائية "[2]، وكانت مثل هذه الأفكار تدعمها

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص107.

[2]– المصدر نفسه، ص79.

النخبة لدى هذه الدول، وكانت تحافظ عن تلك المصالح الاستعمارية وتدافع عنها في دول المستعمر، وفي هذا الصدد نجد ذلك الأستاذ وهو يلقي محاضرة عن الخطر المحدق الذي يطال فرنسا، وهو في نفسه يدرك جيدا أن ما يقوله مجرد افتراء، وأن فرنسا مجرد دخيلة على هذه الأرض، ويقول السارد في هذا السياق واصفا أستاذ المنطق والفلسفة الإغريقية " دهشت لأستاذ المنطق و الفلسفة الإغريقية الذي كان في إحدى محاضراته، فتح قوسين تحدث بينهما، لأول مرة عن خطر محدق ولازب إن لم يتم الاستباق إليه، سيهدد الآثار الحضارية والثقافية الأوروبية وإنسانها نفسها في أرض مثل الجزائر، أخرجها من العدم إلى الوجود البشري وتضحياته وفكره ولغته"[1]، لكن هذا لم يكن إلا مجرد ادعاءات يفتريها الفرنسيون.

أما الحقيقة الثاوية رواء تلك الإدعاءات والافتراءات، فليست سوى تنافس شرس بين مختلف الدول الاستعمارية في السيطرة والهيمنة وتوسيع مناطق النفوذ، فهذه الدول تسعى في توسيع نفوذها وإحكام سيطرتها على العالم ونهب ثروات مختلف دول العالم الثالث " أعتقد أن الإمبريالية بالنسبة إلى الشعوب المستعمرة، هي النظام الاستعماري الذي تدعمه الشركات والبنوك الرأسمالية، وتحميه آلة العسكر "[2]، فهذه هي الحقيقة التي كان يخبئها المستعمِر في ثوب حداثته، وفي ثوب إخراج الشعوب من الظلام إلى النور، وهذه ظلت مجرد شعرات تدعيها الدول الاستعمارية.

أما حقيقة الأمر فإن المستعمِر أرجع الناس ريقا له وكانوا لا يتمتعون بأبسط الأشياء التي كان يتمتع بها الإنسان الحديث، فحتى دورات المياه كانت نادرا ما يمتلكها شعوب المستعمر وهذا ما أخبرته زليخة لحاييم أثناء توقفهما للاستراحة من تعب السفر " حدثتني زليخة، لأنها علمت ذلك من جدتها التي تقيم في الجهة الفوقانية بأن سكان الجهة التحتانية

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص115.

[2]– المصدر نفسه، ص79.

يضطرون لقضاء حاجتهم إلى النهوض فجرا أو انتظار تخييم الليل ليخرجوا إلى حافة الوادي، فيما يتوجه ساكنو الجهة الفوقانية، من الرجال والنساء والأطفال الذين لا مراحيض لهم، إلى سفح الجبل جنوبا فتتعرض مؤخراتهم من ليلة إلى أخرى، وهم يُقعون لقضاء حاجتهم، إلى ضوء المسلاط الدوار بعيد المدى يرسله عليهم من تلك الحربية، حراس فوج المشاة الثالث "[1]، فأين بهذه الظروف المزرية التي يعيشها الإنسان، وتدني أبسط أمور حياته في تداعيات الحداثة وأنها تسعى في تطوير هذه البلدان التي لا تعرف الحضارة حسبهم، فمثل هذه الظروف أظهرت لنا مدى جشع البلدان المستعمِرة، وأظهرت لنا أن نيتها الوحيدة هي النهب والاستيلاء على خيرات البلدان المستعمَرة.

رغم بعض السلبيات التي كانت تحتويها الحداثة، إلا أن إيجابياتها عديدة، وهذا من خلال تواجد بعض الفرنسيين أنفسهم الذين يمجدون حريات الشعوب ويمجدون العقل دون النظر إلى أي أمور أخرى، مثل العرق والدين وغيرها من الأمور التي تثبت العنصرية والحيازة إلى طرف دون الآخر، وهذا ما يظهر في ذلك الأستاذ الفرنسي الذي لا تهمه أي اعتبارات، والاعتبار الوحيد لديه أن تثبت نفسك وتظهر تفوقك في المدرسة " المعلم في المدرسة لا يفرق بين تلاميذه ولا يحابي بعضهم على بعض على أساس الدين أو العرق "[2]، فمثل هؤلاء الأساتذة كان لهم الفضل في نجاح بعض الأفراد في المجتمع الجزائري وظهور الطبقة المثقفة، لأن هؤلاء المدرسين كانوا يؤمنون بالعقل وما يصنعه العقل، ولم تكن لديهم أي اعتبارات أخرى، وهكذا ساهم هؤلاء، بقصد أو بغير قصد، في ظهور مثقفين حملوا لواء الثورة الجزائرية، فرغم كل البشاعة التي حملها المستعمر لكن هذا لم يمنع من ظهور رجال طيبون من الفرنسيين " في الفرنسيس رجال أحرار وعادلون لا تنسى هذا"[3]، فوجود مثل هؤلاء

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص234.

[2]– المصدر نفسه، ص17.

[3]– المصدر نفسه، ص22.

كان من إيجابيات الحداثة ومن الإيجابيات التي أنست بعض الشيء ذلك الوجه الشاحب الخفي للحداثة.

ومن مظاهر الحداثة في "أنا وحاييم"، أن أرسلان وحاييم قد تأثرا كثيرا بالفكر الحداثي، خاصة أرسلان المتشبع بالفكر الشيوعي الذي يعرف بالتسامح في كل شيء، فعلى الرغم من خوضهم غمار الحرب ضد المستعمر، إلا أنهم وبعد الاستقلال لم ينسوا أولئك الأوروبيون الجيدين، فكان أرسلان يعتقد أن الشارع سيكون أفضل لو اختلط فيه الأوروبيون والأهالي، والكل يعيش معا في سلام دون إقصاء الواحد منهم للآخر، حيث يقول:" وافترضت له أن المشهد كان يبدوا جميلا ورائعا وأن من كانوا فيها من الأوروبيين قبل عامين يختلطون الآن بأولئك المواطنين الذين كن نمشي وسطهم يتقاسمون الشارع نفسه والفضاء، ويتبادلون التحيات ونظرات السلام "[1].

هذه هي الحداثة إذن بسلبياتها وإيجابيتها، المهم أنها حررت العقل والتفكير وأنها سارت في سبيل التجديد، وهذا ما يعتقده أرسلان وحاييم اللذين سارا نحو الحداثة والتحديث، وأثرا في الطبقة المثقفة التي ينتميان إليها، فأرسلان الذي كان من أصحاب الفكر الشيوعي اتجه بعد الاستقلال نحو التدريس، ويبدو أن " في انصراف الراوي إلى مهنة التدريس إشارة ذكية إلى أن التحديث يتطلب عقلية جديدة "[2]، وبهذا تكون الحداثة الحقيقية هي حداثة التسامح والتعايش وحداثة الأفكار الإبداعية، والتطور التكنولوجي وغيره، وهذا ما يريده الحبيب السائح، من خلال شخصية أرسلان الأستاذ والمثقف توصيله للمجتمع، وعلى المجتمع مسايرة الحداثة، فيمكن للإنسان أن يأخذ الجيد من هذه الحداثة من إبداعات فنية وتكنولوجية ويسار العالم بأفكاره دون أن ينسى أو يسمح في مبادئ الأجداد.

---

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص263.

[2]– كه يلان محمد، مسألة الثورة روائيا، meo، meo.https//middle-easte-online.com

ويمكن القول بالاستناد إلى ما سبق، إن العالم في وقتنا الراهن عالم تنافس في جميع المجلات، ولا يمكن للإنسان أن يبقى في ركود ويبكي على القديم فقط، فكل يوم يبكي فيه العالم الثالث على حاله تبتعد عنا المجتمعات الأخرى بآلاف الخطوات، ويصعب علينا بهذا الحال اللحاق بها، ولهذا علينا وخاصة في المجتمعات العربية الاستفاقة وتقبل الآخر قبل فوات الأوان.

1.3. الوطن في رواية أنا وحاييم:

تعد الظروف المختلفة وخاصة الظروف السيئة والعصيبة محددة لمدى انتماء الشخص إلى وطنه ومدى تشبثه بهويته، ومن هنا يكتسب الفرد هويته ويستطيع أن يقول أنا أنتمي إلى هذه الهوية دون الأخرى، وهذا ما لمسناه في "أنا وحاييم"، فتشبث أرسلان وحاييم بالوطن كان منذ الصغر ولم يكن وليد الصدفة أو وليد الظروف فقط، فصبغة التحدي كانت في وجدانهما منذ أن كان طفلين، وهذا ما صرحه حاييم لأرسلان " أجزم أنك تبدو من الخلف مثل جندي، على استعداد للتوجه إلى الجبهة "[1]، فالظروف التي عاشها أرسلان وحاييم منذ الصغر جعلتهما يتهيأن لكل ما هو آت، فكل يوم وهم صغار كان ينمو معهم روح الهوية وروح حب الوطن وهو الجزائر، "لا أشعر أني فرنسيا وأرسلان مثل أخي "[2]، هكذا ردّ حاييم وهو صغير وبثقة كبيرة أنه ليس فرنسيا بل جزائريا، وروحه تنتمي إلى هذه الأرض الطيبة.

بدأ شعور الانتماء إلى الجزائر وحبها، يظهر ويكتسب نوعا من الوعي بعد أن انتقل أرسلان وحاييم إلى الجامعة، وبدءا يجتمعان مع مختلف الطلبة ويناقشان ذلك الظلم الذي يتعرض إليه الأهالي بكل أنواعه، فمن ناحية التعليم فقد تعمد المستعمر أن يبقي الأهالي

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص30.

[2]– المصدر نفسه، ص35.

دائما متخلفين وأميين، وهذا من خلال تصعيب ظروف الدراسة، ولهذا نجد القلة القليلة من الذين ساعفهم الحظ، وتعلموا في فترة الاستعمَار، فأغلبية السكان لم تكن لهم فرصة التعلم، رغم أن نسبة الأهالي أكبر بكثير من نسبة الأوروبيين والأقدام السوداء، ومثل هذه الحالات تثبت لنا مدى ظلم وقساوة المستعمِر " ظلم تاريخي أن تكون نسبة عدد الأهالي مقابل مجموع الأوروبيين والأقدام السوداء تسعين في المائة لتكون هذه النسبة هي نفسها من الأميين نفسهم "[1]، وعندما يشعر الإنسان بهذا الظلم والعنصرية، وخاصة أنه في أرضه، يكون حمل السلاح هو الحل الوحيد للقضاء على هذه الظروف القاتلة للإنسان وهو حي حتى قبل أن يكون في التراب، ولهذا " فإن الما يجب لإزالة الظلم التاريخي، يتطلب ثورة مسلحة "[2]، وهذا ما فهمه أرسلان وحاييم ومجموعة من الطلبة في الجامعة أنه لابد من حرب تحريرية تقضي على هذا الظلم التاريخي الذي تشهده الجزائر منذ سنين.

يتضح لنا أن حب الوطن وحب الانتماء ليس مجرد كلام، بل هذا الحب يتجسد بالمشاركة الفعلية وحب التضحية من أجل أن يعيش الإنسان بكرامة وهذا ما جسدته هذه الرواية، فعلى الرغم من أن أرسلان وحاييم من الطبقة المثقفة، وأنهما يعيشان بنفس الكيفية التي يعيش بها الأوروبيين والأقدام السوداء، إلا أنهما لم يتخليا عن موقفهما المعادي لفرنسا وسياستها القمعية، "وتشير بعض المواقف إلى ذوبان الهوية الفردية في إطار الهوية الجمعية وذلك في بعض المواقف المأساوية التي تمر بها الجماعات مثل: الحروب، الاضطهاد والظواهر القومية "[3]، ومن هنا يتبين لنا أن أرسلان وحاييم سارعا إلى تلبية نداء الوطن وعملا من أجل تحريره من أغلال الظلم والاضطهاد والعبودية والجهل.

---

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص86.

[2]– المصدر نفسه، ص87.

[3]– أليكس ميكشللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص105.

رغم أن أرسلان وحاييم يختلفان في طريقة الجهاد، إلا أنه يبقى الجهاد واحد، والمخاطرة واحدة، وملاحقة الجيش الفرنسي لهما كانت تهددهما مع بعض، وهذا فعلا ما حدث لحاييم عندما أُحرقت صيدليته، لأن المستعر الفرنسي شك بأنه يتعاون مع المجاهدين في الجبال، ورغم هذه التضحية الكبيرة التي يقدمها حاييم بمساهمة صيدليته في الحفاظ على حياة المجاهدين ومد لهم يد العون، إلا أنه دائما ما كان يرغب في الصعود إلى الجبل وحمل السلاح كالبقية وهذا بدون تردد أو خوف، لأن حبه للوطن كان حبا حقيقيا راسخا في قلب حاييم " تعرف يا أرسلان؟ كل يوم أزداد شعورا بأن مكاني يجب أن يكون إلى جانبك، أحمل السلاح مثلك، من أجل شعب يستحق الحياة "[1]، فحاييم أكد هويته الجزائرية في هذه الظروف الصعبة والتي تهرب منها من يدعون حبهم لبلادهم، وفي كل مرة يتغنون بأغنيات حب الوطن، إلا أنهم عندما يصل الحق ينزلون الراية ويدورون الظهر لهذا الوطن.

رواية "أنا وحاييم" تؤكد أيضا أن كل أطياف المجتمع شاركوا في هذه الثورة ولم تقتصر على المسلمين فقط، فإن " المقاومة الشعبية حين انطلقت لتزيح ذلك المحتل انخرط فيها كل الوطنيين، بغض النظر عن ديانتهم "[2]، فكل من يدعي الوطنية وحب الوطن ظهر في هذه الظروف، ولم يقتصر هذا على فئة دون أخرى، ومن هذه المشاركة المتعددة نستنتج التنوع الثقافي والديني الموجود منذ قديم الزمان في الجزائر، فهذا التنوع ليس وليد اليوم كما يقول البعض، ولهذا فإن الكثير منا يعلم " أن الكثير من يهود الجزائر ضحوا واستشهدوا من أجل أرض سكنوها منذ آلاف السنين على الرغم من قانون كريميو الذي فرض عليهم بالقوة الجنسية الفرنسية "[3]، وهكذا يتضح لنا أن اليهود دخلوا غمار الحرب مثلهم مثل باقي

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص188.

[2]– محمد سمير ندا، أنا وحاييم وثيقة إنسانية عن الجزائر الثورة، وودوس كوم، https//:www.mohamad samir nada.wordopress.com

[3]– واسيني الأعرج، حاييم أو سيرة اليهودي الطيب، القدس العربي، 2018، https://www.alqds.com.

الجزائريين على اختلاف معتقداتهم وتوجهاتهم، فحب الوطن هو الذي استطاع أن يجمعهم رغم الفوارق العديدة الموجودة بينهم.

ليس اليهود فقط من شاركوا في الثورة لأن انتمائهم ووجودهم منتمي إلى هذا الوطن، لكن حتى المرأة شاركت في الكفاح ضد المستعمر وأثبتت قوتها وقدرتها على تخطي المحن، ويتجسد هذا في "أنا وحاييم" في زليخة وتحملها مشقات الجبل كباقي الرجال أو أشد من بعض الرجال، فكانت دائما تسعى إلى أن تبدو قادرة مثلها مثل الرجال، عكس ما كان يتداول عن المرأة بأنها ضعيفة وليست قادرة، فكانت دائما حريصة على " أن تبدو هي الأخرى قادرة على تحمل حياة جندي تحرير في الجبال"[1]، وبهذه المشاركة في أصعب وقت مرت به الجزائر برهنت المرأة الجزائرية عن قوتها وصلابتها في مواجهة المستعمر، والتاريخ الثوري للجزائر مليء بالبطلات اللواتي سبلن أنفسهن من أجل حرية الشعب.

ولا شك أن تلبية نداء الوطن بمثابة الدليل القاطع لارتباط المرء بوطنه وأرضه، فتلبية نداءه أكبر دليل على هذا الانتماء، وبرهان قاطع على الهوية الجزائرية، ولهذا فإن اختيار الحبيب السائح لفترة الثورة في هذه الرواية كان عن قصد ليؤكد أن اليهود جزء لا يتجزأ من المجتمع الجزائري، وليفك أيضا عقدة الجزائري ضد اليهود؛ عقدة يمكن تحسسها حينما نعرف أن الجزائري عامة يستعيذ بالله من اليهود حين يذكرهم أو يصل اسمهم إلى سمعه، وعلى الرغم من هذا فإن الحق هو أن يهود الجزائر قد أنصفهم التاريخ الحقيقي الذي لا يطاله أي شبهات، وأكد على مشاركتهم في الثورة مثلما شارك أي جزائري دون أدنى اعتبار للاختلافات العقائدية.

2.3. الإنسان المثقف في رواية "أنا وحاييم":

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص178.

تحولت الثقافة في زمن الحداثة إلى طابع فردي، وأصبحت تطلق على الشخص ذو المستوى العالي في التعليم، فذلك الشخص الذي يعول عليه في المجتمع في أن يزيد لهم شيئا، هو عندهم المصباح الذي ينير دربهم، وخاصة في بعض البلدان التي تكون فيها نسبة المثقفين ضئيلة، وحتى وإن وجدت بكثرة فعلينا تنقيتها وغربلتها، لأن المثقف يجب أن يحمل في جعبته قبل أي شيء آخر مبادئ الإنسانية ثم العلم في الدرجة الثانية، وهذا ما يحتاجه المجتمع ليزدهر ويتقدم إلى الأمام.

وفي رواية "أنا وحاييم" كان لأرسلان وحاييم شأن كبير لأنهما متعلمين، فكانا بسبب ذلك فخرا لكل المنطقة خاصة وأنهما تعلما في زمن الاستعمار، فكانا حريصين منذ الصغر على التعلم والنجاح في الدراسة " إنها مسألة شرف أن نكون متفوقين "[1]، وهذا لإدراكهما ميزة المتعلم منذ الصغر، ولإدراكهما أن البلد سيحتاجهم يوما ما، وأنهما يحبان التحدي منذ الصغر، وهذا التعليم أكسب لهم التقدير والاحترام فكانت عائلتيهما تفتخر بهما كثيرا لأنهما من القلائل الذين تعلموا في ظل الانحصار الذي فرضته فرنسا، وهذا ما ظهر لنا على لسان أرسلان " أنا ولد القايد حنيفي، أول الأهالي في المنطقة التحاقا بالجامعة "[2]، ولم تكن العائلة تفتخر أمام الأهالي فقط، بل حتى أمام المستعمر الغاشم، فكل من كان له ولد متعلم كان يحظى بمعاملة جيدة وخاصة أن الفرنسيين يدركون جيدا أهمية العلم والمعنى الحقيقي لأن يكون في العائلة متعلم.

أما الدور الكبير الذي كان ينتظر هذين المثقفين، فبرز حين دخلت البلاد غمار الحرب ضد المستعمر الفرنسي، فكانت لهما أهمية كبيرة أكثر من أي وقت مضى، نظرا للوعي والإدراك الكبير الذي كانا يتميزان به مقارنة بباقي الشعب الجزائري، فكان صوتهما

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص43.

[2]– المصدر نفسه، ص53.

مسموعا لأنهما من الطبقة المثقفة، وهذا ما يظهر في الاجتماعات المختلفة التي ينظمها الأهالي ضد الاستعمار، فكان صوت أرسلان مثلا، جدّ مسموعا " أستاذ أرسلان ثقتنا كبيرة فيك "[1]، فهذه الثقة الكبيرة كانت نتيجة هذا العلم الذي كان يحمله أرسلان، فحتى المعاملة في الجبل وأثناء التجمعات للحديث عن الحرب كان لا يعامل فيهما أرسلان كالبقية، لأنه من الفئة المثقفة اللذين يعتبرون من القلة " لمكانتك الثقافية أنت لا تحتاج إلى وعظ من شخص مثلي "[2]، وللمثقف تبعا لهذا، مكانة عالية ومرموقة في المجتمع، فكان صوته يسمع من كل الأطراف، لأن الكل يدرك أهميته في الإرشاد والتعبئة والوعي الذي كان يزرعه في الجنود بصفة خاصة وباقي الأهالي بصفة عامة.

وكان المثقف في زمن الاستعمار ذو مهمتين، مهمة القتال كباقي المجاهدين، ومهمة المعلم الذي يعلم الناس الكتابة والقراءة، وهذا هو المعنى الحقيقي للجهاد وإدخال الوعي التحرري لهؤلاء المجاهدين، وخاصة أن أغلبيتهم غير متعلمون ولا يجيدون القراءة والكتابة "إنهم الآن في حاجة إليّ لأعلمهم وأدّرس من لا يحسن منهم القراءة والكتابة وأساليب التحرير والحساب"[3]، وكان أرسلان، فضلا عن هذا وذاك، يُعِدّ المجاهدين لما بعد الحرب، لأن المثقف يدرك جيدا أن الأماكن الشاغرة التي سيتركها الفرنسيون تحتاج إلى الملء، وهذا الذي يملأها يجب أن يكون ذو ثقافة حتى ولو كانت بسيطة، فهكذا هو المثقف إذن الذي يكون تفكيره بعيد المدى.

كان المثقف الجزائري ذو دور كبير في الثورة التحريرية، لأنه يعلّم ويجاهد، ليس هذا وحسب، بل إن مكانته كانت عالية عند الأهالي، وعالية حتى عند الفرنسيين لأنهم يدركون جيدا الدور الذي يمكن أن يلعبه في عملية التغيير، ولهذا دائما ما يحاولون إغراء هذا

[1]- الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص135.

[2]- المصدر نفسه، ص135.

[3]- المصدر نفسه، ص175 .176.

المثقف ببعض المناصب والأموال لضم عقولهم، وإبقاء السيطرة في يدهم لأنهم يدركون جيدا أن تحكمهم في هذه العقول وسيطرتهم عليها، سيؤدي إلى فقدان الشعب لمحركه الحقيقي فيظل الشعب محدود الإدراك وغير قادر على التغيير والمجابهة.

كان أرسلان وحاييم، من أجل ما سبق، كباقي الطبقة المثقفة في الجزائر، من الأوائل الذين سعوا إشعال فتيل الحرب، ولم تغريهم لا مناصب ولا أموال، فكانت مصلحة البلاد واستقلالها فوق كل اعتبار، وكانت هذه الطبقة المثقفة لا يدخرون أدنى جهد في إثبات أنهم من خير أبناء هذا الوطن، فرغم صفة الحداثة التي كان أرسلان وحاييم يتسمان بها، إلا أنهما لا يتوانيان في إثبات أصلهم وهويتهم، ويلبيان أول نداء للوطن ويزيدان لهويتهم الوطنية وهوية المثقف الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي هوية المناضل المثقف.

3.3. اللغة في رواية أنا وحاييم:

يسعى المستعمر الفرنسي، كباقي البلدان الاستعمارية، إلى ضم كل هويات المنطقة إلى البلدان الاستعمارية، وهذا بداية من لغتها، لأن اللغة مكون رئيسي للهوية ولبها في غالب الأحيان، ولهذا نجد المستعمر كان يقحم لغته ويعممها في الإدارات والأماكن الرسمية المختلفة، من أجل إنجاح عملية الطمس التدريجي للهوية وتقويضها، لكن هذه العملية وجدت أمامها عقبات عدة باتخاذ البلدان المستعمَرة بعض الإجراءات للدفاع عن لغتها وثقافتها واثبات وجودها بدءا بالعائلة باعتبارها نواة مركزية للمجتمع، فكانت العائلات شديدة الحرص على الكلام بلغة الأم، وهذا من أجل الحفاظ على اللغة الأصلية ووضع سد منيع أمام محاولات الطمس المتكررة، ولهذا نجد العائلات الجزائرية تتحدث بمختلف لهجاتها داخل العائلة في زمن الاستعمار، وهذا بغية الحفاظ على الهوية، وهذا لم يقتصر فقط على الأهالي بل حتى العائلات اليهودية "فإن عائلة بن ميمون التي نزحت من مدينة الأغواط بعد احتلالها في بداية المنتصف الثاني من القرن الماضي كما حدثني حاييم عنها ذات مرة، كان لسان

أفرادها مستقيما وسليما في نطقهم الأصوات العربية مثل بقية اليهود الأهالي في جهات ومدن أخرى"[1].

واضح من هذا النص أن العائلات الجزائرية كانت تسعى دائما إلى المحافظة على لسانها، وهكذا يتبين أيضا أن اليهود جزء لا يتجزأ من الجزائريين، فحتى لسانهم كلسان باقي الأهالي باختلاف لهجاتهم.

وتعد الجزائر من البلدان الغنية باللهجات التي تختلف من منطقة إلى أخرى، ولم يمنع هذا الاختلاف والتنوع من الالتفاف حول اللغة العربية، فقد كان للكتاتيب القرآنية دور كبير في توحيد اللغة والمحافظة عليها، لأن العربية هي لغة القرآن ولغة المسلمين، وهذا الأمر شبيه بما قام به اليهود الذين حاولوا أن يحافظوا على لغتهم العبرية، فأرسلان وحاييم كل منهما تعلما لغة الديانة التي ينتمون إليها وهذا من أجل القيام بمختلف الشعائر الدينية وأيضا الحفاظ على الهوية، وحاييم مثلا كان يقرأ التوراة بالعبرية، أما أرسلان كان يجيد العربية من أجل قراءة القرآن وهذا ما صرح به " مثلما تعلمت أنا العربية في الكتاب منذ أن بلغت الرابعة وبها حفظت سورا قصيرة من القرآن إلى سن السادسة"[2]، فيكون الجزائري بهذا دائم الحفاظ على لغته رغم اختلاف الطرق المؤدية إلى ذلك، ورغم الضغوطات التي يمارسها المستعمر عليه؛ مستعمر يدرك جيدا أن اللغة أداة من أدوات فرض السيطرة، وكان المستعمر يمنع، من أجل ذلك، التكلم بالعربية في الأماكن العامة ويفرض لغته الفرنسية، وهذا ما حدث مع حاييم ذات مرة الذي لقي إنذار من "مسيو وييل" بأن يتكلم بالعربية مرة أخرى، وهذا ما أخبر به أرسلان " كان سيخبرني أن مسيو وييل حذره في البداية من أن يسمعه مرة أخرى يتحدث معي باللغة العربية "[3]، لكن رغم هذا المنع، ظل الصديقان يتحدثان باللغة العربية التي

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص 30.29.

[2]– المصدر نفسه، ص32.

[3]– المصدر نفسه، ص34.

يحبونها كلما سمحت لهم الظروف، فكان حاييم في كل مرة يغتنم الفرصة ليتحدث بالعربية وهذا ما يتبين لنا في أحد مواقفه حينما كاد أن يشتبك أرسلان مع أحد موظفي الجامعة "ناطقا لي بلهجة عربية "خلّيك منّو !" "[1]، ولعل هذا الرد بالعربية تعبير عن الانتماء، وأنه جزء من هذا الوطن وهويته ملتصقة بهذه الأرض، ولهذا نجده يعرف كل شيء عن اللغة العربية مثل أرسلان.

على الرغم من أن الاستعمار فرض اللغة الفرنسية في كل المؤسسات، وحاول التضييق على العربية من كل الجهات، إلا أن هذا لم يمنع من أن يتعلم الفرد اللغة الفرنسية فمن خلالها يستطيع الإنسان المجادلة في ظل التطورات الكثيرة التي أفرزتها الحداثة، ويستطيع مناقشة قضيته التحريرية في مختلف المحافل الدولية نظرا للتضييق الذي تتعرض له العربية، ولا شك أن تعلم هذه اللغة الأخرى لا يعد مساسا بالوطنية والهوية، بل إنه من إيجابيات الحداثة التي تحاول أن تجعل الإنسان دائم السعي إلى التعلم، فلا حرج في أن يتعلم الإنسان لغة قوم آخر؛ لغة تمكنه من الاقتراب أكثر إلى هذا الآخر وتسهل عليه معرفته حق المعرفة.

هكذا كان أرسلان وحاييم يتقنان الفرنسية لأنهما يسايران الحداثة ويدركان جيدا التطورات المختلفة الموجودة في العالم، وكان هذا بالنسبة لهما مصدر اعتزاز وفخر، فحاييم نفسه جامل أرسلان على اتقانه اللغة الفرنسية وهذا حينما قال له: " أنا أرى أن ما يجلب الانتباه إليك أيضا هو لغتك الفرنسية التي أجدها، قبل زملائك متقنة دقيقة، مثل أن لك المنطقية وأجوبتك الواثقة ومجادلاتك الجريئة"[2]، فبمثل هؤلاء الفرونكفونيون استطاعت الجزائر أن تنال استقلالها، لأنهم كانوا قريبين جدا من الفرنسيين ويعرفون نقاط ضعفهم،

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص80.

[2]– المصدر نفسه، ص78.

ولهذا جادلوهم في مختلف القمم العالمية بلغتهم، وكانوا يدركون أيضا التطورات المختلفة الموجودة في العالم من خلال هذه اللغة.

اللغة إذا جزء لا يتجزأ من الهوية، ومعرفة حاييم للغة العربية بمثابة إنصاف له ودليل آخر في هذه الرواية على أن اليهود من هذه الأرض، وفي الرواية، زيادة على ذلك، ردّ الاعتبار للفرونكوفونيين، وفيها نزع العقدة الفرنسية التي يتهم بها أصحاب هذه اللغة، فلا بأس من أن يتعلم الإنسان أي لغة أخرى غير اللغة الأم، وتعلم أي لغة أخرى لا يعني القضاء على اللغة الأم، بل هي زيادة علمية ومواكبة للحداثة التي لا تعترف بأي لغة ولا بأي حدود، والدليل على ذلك أن اللغة العربية أضحت من اللغات التي تدرس بأعرق الجامعات وأن أغلب التراث العربي جمعه مستشرقون.

4.3. التعايش الديني في رواية أنا حاييم:

كانت الأزمة التي حدثت في الجزائر، وهي أزمة إرهاب أعمى، ومشاكل دينية وسياسية جمّة، وتصدعات كبيرة في كيان الأمة الواحدة، والتي لم يخرج منها الجزائريون إلا بشق الأنفس، كانت هذه الأزمة محلّ تساءل الكثير من الملاحظين: عن أسبابها؟ وأسباب ذلك الخلاف؟ وهل الخلاف موجود أصلا أم أنه مجرد افتراء؟ ومن أجل هذا اتجه الكثير من الروائيين الجزائريين إلى فترة الثورة وفترة الاستعمار لينظر في حياة المجتمع الجزائري، فلم يجدوا فيه إلا التعايش رغم كل الظروف ورغم كل الاختلافات اللغوية والعقائدية، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فحسب، بل إن الجزائريين قد تعايشوا مع بعض من الأقدام السوداء والأوروبيين رغم ظروف الحرب، وكان الجزائريون يكنون لهؤلاء كل الحب والاحترام من مثل ما هو بارز في علاقتهم بفرانس فانون.

تحمل رواية "أنا وحاييم" أروع نموذج للتعايش الديني وتقبل الآخر من خلال تركيز أحداث الرواية حول صديقين عاشا منذ الطفولة معا إلى آخر يوم غادر فيه أحدهما إلى

مولاه، وكان لا يفترقان أبدا، وعاشا كل ظروف الحياة معا فأرسلان نفسه يؤكد هذا الارتباط من خلال قوله: " جنب إلى جنب مع حاييم "[1]، ولم يكن هذا التعايش بين هذين الصديقين فقط، بل رأيناه بين مختلف العائلات الجزائرية المسلمة واليهودية إبان ثورة التحرير وأثناء فترة الاستعمار الفرنسي، حيث كانت هذه العائلات تتبادل الزيارات فيما بينها ويدْعُون بعضهم البعض إلى المأدبات وغيرها من السلوكات التي تنم عن ذلك التعايش، وأرسلان نفسه حدث جدته على دعوة حسيبة له وحاييم في المولد النبوي الشريف " ورويت لها أن حسيبة كانت دعتني أنا وحاييم والصادق إلى بيت عائلتها للغذاء لتناول طبق الكسكس"[2].

كان الجميع يعيشون إذن معا، جنبا إلى جنب بدون أي تفكير سلبي أو حتى الخوض في المسائل والمجادلات الدينية التي ربما تزعج أحد الطرفين، فكان كل واحد منهم يحترم عقيدة الآخر دون أي تجريح أو إقصاء، فعاشا بسلام بدون أي عقدة، وكان هذا التعايش أول رسائل هذه الرواية، فهي في آخر المطاف "دعوة إلى إحياء فكرة التعايش والتسامح التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري طيلة قرون "[3]، ولعل هذا تلميح ذكي من السائح للجزائريين جميعهم، بأن الجزائر غنية ومتنوعة ثقافيا وعقائديا، وأن الجزائر تتسع لكل هذه الفئات الاجتماعية، والتعايش الديني ليس معناه أن تتخلى عن معتقداتك كما يحلو للبعض فهمه، فالمعتقد راسخ في القلوب ولا يمكن لأي كان زعزعته لأن مكانه في القلب.

إن التعايش إذن هو تقبل الآخر مهما اختلاف اعتقاده، وهذا ما نراه في هذه الرواية من حرية في الممارسات الدينية والطقوس المتعلقة بها عند الصديقين أرسلان المسلم وحاييم اليهودي، وفي أحد مقاطع الرواية يتجلى لنا هذا التعايش " حتى عدت إلى النوم وجدت

---

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص20.

[2]– المصدر نفسه، ص109.

[3]– آمنة بلعلى، الأنساق في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح، كلمات، http://kalimates.com

حاييم دخل سريره وبين يديه كتابه التوراة "[1]، وهذا المشهد من أعظم المشاهد التي تدل على التعايش مهما كان الاختلاف العقائدي، فنجد حاييم أيضا حمل مصحفه وبدأ يقرأ فيه، وظهرت هنا قيمة التعايش الحقيقية وأيضا ذلك التشابه الكبير بين مختلف الديانات السموية " كنت أعرف حاييم غسل يديه ووجهه قبل أخذه كتابه، دخلت الحمام فتوضأت وعدت فأنزلت من دولاب الملابس مصحفي، هدية والدتي الثمينة "[2].

لم تمس مثل هذه الصداقة بعقيدة أي من الصديقين، وبقي كل واحد منهما متمسكا بعقيدته، لأن كل واحد منها كان متيقنا بعقيدته، لكن رغم هذا اليقين لم يمنعهما من التعايش معا، وخاصة أن الديانتين كانتا متشابهتان فيما بينهما، فهما سماويتان قبل أي شيء آخر، فالمحرم والحلال لدى هاتين الديانتين متقاربان لحد بعيد " لذلك يصفوننا بأهل الحرام ! العري حرام، والخنازير حرام، وأكل لحم من غير ذبح حرام "[3].

حاولت الرواية أن تجمع كل ما هو متشابه بين هاتين الديانتين لإثبات التقارب الموجود بينهما، وأن التنافر الموجود لم يكن سوى في الآونة الأخيرة، أما الحقيقة فإنها تقر بأن الجزائريين كانوا متعايشين، وأهم دليل لهذا التعايش هي فترة الثورة التي جمعت كل أطياف المجتمع .

تعد الخلافات الموجودة بين اليهودي والمسلم خلافات عادية بين الإنسان وأخيه الإنسان في العالم، فيمكن أن تكون بين المسلمين في حد ذاتهم أو حتى بين اليهود في حد ذاتهم، أي أن الخلاف في أساسه ليس دينيا، وهذا ما حدث لوالد حاييم مع ابن طائفته " لم يشفع لوالدي عند مردوخ أنه من ملته ودينه لما تجاوز الأجال المحدد لتخليص رهن

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص123.

[2]– المصدر نفسه، ص123.

[3]– المصدر نفسه، ص34.

مجوهرات والدتي من أجل مصاريف تسجيلي في الجامعة"[1]، وهذا يعني أن الإنسان الجيد والسيئ يمكن لنا أن نجده في مختلف الديانات، وهذا بالتحديد ما نراه في المردوخ حيث لم يتخلص من شره لا أبناء ديانته ولا غيرهم، لأنه بكل بساطة رجل جشع وهذا الجشع لا يتعلق بالدين بل هو مرض نفسي.

هكذا إذن توضح لنا رواية "أنا وحاييم" كل أشكال التعايش والتشابه بين اليهود والمسلمين في عز الثورة التحريرية "ويخترق بذلك فترة مهمة في تاريخ الجزائر الحديث مثلت فيها ثورة التحرير نقطة فاصلة بين عهدين، لا على الصعيد السياسي فحسب، بل على صعيد الوعي الجمعي وممارسات الأفراد وقبولهم الاختلاف والتنوع "[2]، واختيار الروائيين الجزائريين لهذه المرحلة من المراحل التاريخية للجزائريين ليس إنصاف فقط لليهود وإعادة الاعتبار لهم، بأنهم جزء من هذه الأرض ومن هذا الوطن العريق، بل هو إنصاف للمسلم والإسلام بحد ذاته بأنه دين يتقبل الآخر بكل بساطة، وهذا بإتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يتعايش في مدينته المنورة مع اليهود ولا يوجد أي اختلاف بينهم، وهذا عكس ما يروج لدين الإسلام بأنه دين إقصاء ودين لا يقبل الآخر وأنه دين إرهاب.

وبهذا تكون رواية "أنا وحاييم" أعادت الاعتبار للدين الإسلامي وأظهرته على هيأته الحقيقة بأنه دين يقبل التعايش مع أيٍ كان، وأعادت الاعتبار للجزائر البلد باعتباره وطنا يجمع ولا يفرق، وتتعايش فيه كل الأطياف باختلافاتهم العقائدية، وبهذا تمحو هذه الرواية أن الجزائر بلد لا يقبل الآخر، بل الجزائر بلد للجميع خاصة من ساهم في تحريره من الاستعمار ومن بينهم اليهود.

---

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص153.

[2]– عامر بوعزة، المسلمون واليهود في المخيال السردي، ليدرز، 2020، https://www.leders.com

4. الجماعة و الفرد في "رواية أنا وحاييم":

تحت ظل الحداثة وتداعياتها تتجزأ الهوية في كل يوم وتظهر لنا هويات جديدة تخرج إلى العيان، باعتبار الظروف المحيطة بها أو عبر تأثرها بحركة معينة أو بشخصية، أو حتى بنمط عيش معين، لهذا يتقمص الإنسان هوية أخرى نتيجة لظروف معينة، وهذا لا يعني أن يخلع الإنسان ثوب هويته الأصلية، بل يحافظ عليها ويساير في الآن نفسه المتغيرات .

1.4. الهوية الجماعية في رواية "أنا وحاييم" :

يكتسب الإنسان عدة مبادئ في حياته، وهذا بانخراطه في جماعات يكتسب مبادئها ويمشي وفق خططها وقواعدها، وهكذا هي الثورة الجزائرية حيث اكتسب الشعب الجزائري كل مبادئ هذه الثورة من جبهة التحرير الوطني التي ناضلت من أجل حرية الجزائر، وما يميز جبهة التحرير أنها تضمّ مناضلين من مختلف الأحزاب السياسية ومن مختلف الأفكار، لأن ما جمعهم هي الحرية التي اتفق عليها الجميع، حتى وإن لم يكن من الأهالي، وإنما من الأوروبيين والأقدام السوداء مثل " فاردنون إيقتون "[1] الذي ناضل من أجل حرية الجزائر رغم أنه ليس من الأهالي، لكن كان يؤمن فقط بحرية التعبير وحرية الشعوب، وهذا من خلال أفكار الحزب الشيوعي الذي ينتمي إليه، وبهذا الانتماء يكتسب الإنسان هويته ومبدأه في هذه الحياة.

وعلى منوال فاردنون ايقتون انضم الكثير من الشيوعيين إلى هذه الثورة والتفوا حولها، وكان لهم الفضل في نجاحها، وفي الرواية نجد بعد إصابة زليخة في العملية التي قامت بها ضد المستعمر الفرنسي، كان منقذها ممرض ليس من الأهالي، فحين أدخلوها إلى صيدلية

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص208.

حاييم " حضر ممرض ليس من الأهالي "[1]، وكان سببا في إنقاذها وعادت إلى النضال واستمرت في نضالها إلى أن استقلت البلاد.

ويكون الشيوعي بإيمانه بحرية الشعوب لا يتوانى أبدا في إعطاء مساعدات للثوار الجزائريين، ويغتنم أدنى فرصة سانحة ليقدم لهم فيها يد العون، فحاييم نفسه كان يتلقى الأدوية من مسؤول شيوعي الذي كان يقدم له يد العون، فكان " يعرف مسؤولا شيوعيا من الأوروبيين في الصيدلية المركزية لا يخفي تعاطفه مع القضية "[2]، هكذا ساهم الشيوعيين إذن في الثورة، باعتبار أن هويتهم كانت مبنية على مبادئ الشيوعية ومبادئ الجماعة التي ينتمون إليها مثل سلين شوقاليه وغيرهم من الشيوعيين.

كان أرسلان جد مقرب من هؤلاء الشيوعيين، خاصة أنه متشبع بمبادئ الشيوعية ومعجب بهم، " كنت أعجب ببعض زملائي من الشيوعيين في قسم الفلسفة، سلين شوفاليه خاصة إذ يربطونها بحرية الجماعات والشعوب"[3]، وبهذا يكون للشيوعيين دور كبير في تحرير الجزائر، وخاصة وأنهم كانوا مقربين من الإدارة الفرنسية مما سهل لهم المهمة بعض الشيء، لكن هذا لم يمنع من تعرضهم لمضايقات الإدارة الفرنسية، وخاصة إن شكّت في أحد، فالحكومة الفرنسية لا تتساهل مع أي أحد يساعد الثوار الجزائريين حتى وإن كان واحدا منهم.

ومثل هؤلاء الشيوعيين كتسب أرسلان وحاييم شخصيتهما القوية وخاصة الوعي السياسي بعد دخولهما إلى الجامعة التي وجدوا فيها الفضاء المناسب للتعبير عن أفكارهم، وخاصة بعد عملية الإقصاء التي تعرضا لها من الابتدائية حتى وصولهم إلى الجامعة،

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص182.

[2]– المصدر نفسه، ص189.

[3]– المصدر نفسه، ص78.

والجامعة مثلت لهم تلك المرحلة الانتقالية التي ساهمت في توعية أرسلان وحاييم " إن الجامعة في عصرنا، لما يجري فيه من تحولات اجتماعية وثقافية، تغدو الفضاء الوحيد الذي يمكن لنا أن نتحرر فيه من أي رقيب "[1]، هذا الفضاء المميز أكسب أرسلان وحاييم رؤية أخرى غير التي كانت لديهم في معسكر وسعيدة، فالجامعة جعلتهم يتعرفون بأصدقاء آخرون مثل حسيبة والصادق، ويتعرفون على الظلم الكبير الذي يتعرض له الأهالي من إقصاء وقتل، وهذه المعرفة بالأحداث زادتهم وعيا بالقضية الوطنية وزادت فيهم الرغبة في التغيير، خاصة أرسلان الذي أصبح منخرطا في نادي الطلبة المسلمين وهذا ما زاده وعيا، وهذا ما تبين لنا في هذا المقطع " ودعاني الصادق بعدها إلى مرافقتهما في الأسبوع المقبل إلى نادي الطلبة المسلمين "[2].

إن مثل ذلك الانخراط جعل أرسلان يكتسب هوية أخرى، وهي هوية التحرر من قيود المستعمر، وحمل مبادئ التحرر وإرجاع كرامة الإنسان الجزائري التي سلبت منه، ولم يستثنى حاييم من هذا الأمر كونه كان يرافق أرسلان إلى النادي، فرغم أنه لم يكن من المسلمين، إلا أنه كان يحمل مبدأ التحرر وهذا ما كان يجمع أعضاء النادي أكثر من اعتبار إسلام الشخص.

تعد هذه النشطات المختلفة التي ساهم فيها هؤلاء الطُلاب الواعون سببا في اندلاع الثورة، فشارك أرسلان " كطالب جامعي في نشاطات الطلبة الذين أسهموا في التحضير لاندلاع الثورة "[3]، وكان لهؤلاء الشباب الفضل في تعجيل اندلاع الثورة، لأنهم كانوا يمثلون النخبة من الجزائريين التي كانت درجة وعيهم بالوضع الجزائري تختلف عن درجة وعي باقي

---

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص76.

[2]– المصدر نفسه، ص88.

[3]– فريدة إبراهيم، تماثلات الهوية في راوية "أنا وحاييم" للجزائري الحبيب السائح، العربي، 2020، http :s//www.alraby.com

الأهالي، وحتى الشجاعة التي كانوا يمتلكونها في المواجهة تختلف، لأن الإنسان البسيط من الأهالي كان دائما ما يخاف على قوت يومه، لهذا لا يدخل في صراعات مع المستعمر، عكس هؤلاء الطلبة الذين كانوا لا يخافون شيئا، حيث استطاعوا تعبئة الشعب معهم بشرحهم تفاصيل الحرب وأهدافها، فأرسلان مثلا كان يشارك في اجتماعات سي فراجي التي يقول عنها "صرت أقدم خلالها عروضا قصيرة حول حرب التحرير والدعاية المضادة من جهة ثانية "[1]، كون الهجمات الشرسة التي كان يتعرض إليها حزب جبهة التحرير الوطني كان لابد لإنسان ذو وعي بما يحدث الرد عليها وشرح ذلك للبقية، وعدم تصديق الإدعاءات والتشويهات التي كانت تمارس ضد الجبهة، فكان للنخبة دورين في هذه الحرب: دور حمل السلاح كالبقية من جهة، ودور في إدخال الوعي السياسي والنضالي من جهة أخرى.

هكذا إذن كان للجماعات المختلفة دور كبير في الثورة الجزائرية من بينها الشيوعيين ونادي الطلبة وغيرها من الجمعيات الأخرى التي أكسبت المجتمع هوية أخرى وهي هوية التحرر من بطش المستعمر، وكانت هذه الجماعات تجمع مختلف أطياف المجتمع من أقدام سوداء وأوروبيين وأهالي، فكان همّ الجميع الوحيد هو التحرر بغض النظر عن أي توجه آخر، كون التوجه الوحيد الجامع لهم هو التحرر.

2.4. الهوية الفردية في رواية "أنا وحاييم:

رغم الارتباط الشديد الذي كان بين أرسلان وحاييم واندماجهما في المجتمع وتأثرهما الكبير بمختلف الأحداث الواقعة فيه، إلا أن هذا لم يمنعهما من ممارسة حياتيهما بشكل طبيعي، ويكتسبا هوية خاصة بهما بعيدا عن المجتمع وأعرافه، والتي تفرض سلوكيات معينة للأفراد، لكن هذا لم يمنع أرسلان وحاييم، لقوة شخصيتهما، من أن تكون لكل واحد منهما هوية خاصة، وعالما خاصا مليئا بأفكار توافق أسلوب حياتهما، فكانا مرحين رغم كل

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص143.

الظروف التي سادت في البلاد قبل وبعد الاستقلال، ورغم هذه الظروف الصعبة إلا أنهما كانا يقضيان أوقات ممتعة معا " كنت أقضي من نهايات الأسبوع في بيت أحدنا بالتناوب أو خارجهما أوقاتا حميمية وممتعة، نأكل ونشرب، نسمع الموسيقى ونغني أحيانا "[1]، وتصدر هذه التصرفات الفردية من أرسلان وحاييم مقارنة بمختلف الأهالي لكونهما متأثرين بالفكر الحداثي، وأيضا لكونهما اختلطا كثيرا بالأوروبيين والأقدام السوداء، والانفتاح الموجود عندهم، لهذا نجد أرسلان وحاييم يتقبلان الآخر بكل سهولة.

ولا شك أن الشخصية القوية التي امتلكها كل من أرسلان وحاييم حفزتهما على امتلاك هوية خاصة تمكنا من خلالها من امتلاك الحرية في صنع القرار واتخاذ مواقف معينة دون تدخل أحد في قراراتهما لأنهما يمتلكان الثقة في النفس وحب التحدي منذ الصغر ولهذا " فإن الشعور بالاستقلال يعطي الفرد إمكانية التفكير واتخاذ القرار وإجراء المبادرات الشخصية "[2]، وهذا الشعور هو الذي أدى بأرسلان وحاييم إلى اتخاذ قرار الدخول في الثورة الجزائرية ومناهضة الاستعمار الفرنسي رغم اختلاف الطرق التي اتخذوها في محاربة هذا الاستعمار، وبهذا الشعور يتأكد لنا أن هذا القرار اتخذ عن قناعة شخصية ولم يكن ذلك إجباريا بل هو هدف آمنا به.

بعيدا عن أرسلان نجد شخصية حاييم الهادئة، التي تتجه نحو المثالية والتي تأثر بها أرسلان، وخاصة من حيث السماحة التي يتميز بها حاييم في مواقفه المختلفة التي كان فيها جد متسامح، وزيادة على السماحة كان حاييم متمسكا بعقيدته رغم قلة أتباعها، كل هذه الصفات التي يمتلكها حاييم تأثر بها كثيرا أرسلان ولهذا قال فيه: " كل شيء في حاييم يعود إلى ذلك، ذكاؤه المتوقد وهيئته السميحة، رزانته الوطيدة وطيبة نفسه "[3]، كل هذه الصفات

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص250.

[2]– أليكس ميكشيللي، الهوية، تر، علي وطفة، ص89.

[3]– المرجع نفسه، ص46.

جعلت أرسلان شديد الارتباط بهذا الصديق، ولم ينفك عنه للحظة واحدة، فكان كالظلين كل واحد منهما يظل الآخر.

نظرا لتأثر أرسلان وحاييم بالفكر الحداثي، كانا كثيرا ما يتصرفان كالأوروبيين نظرا لكونهما من الطبقة المثقفة، وأيضا لكونهما أحرار لا يرتبطان بأي شيء أو قواعد، ولهذا نجدهما يحتسيان الشمبانيا ويستمتعان بملذات الحياة التي تكون في أغلب الأحيان محرمة اجتماعيا ودينيا، ومن هذا المقطع يتبين لنا ذلك الإنفراد الذي يميز أرسلان وحاييم " يجب أن أذكر أني لم أمنع نفسي من ملذات وهران العابرة في هذا الملهى أو في تلك الحانة أو المطعم "[1]، وبهذا يكون أرسلان وحاييم اكتسبا هوية خاصة بعيدا عن المجتمع وقيوده، وكانا يستمتعان كثيرا بهذه الحياة رغم قسوتها والظروف التي كانت عليها.

هكذا تكونت لدى أرسلان وحاييم إذن هوية خاصة بهما وبأفكارهما الشخصية، ولهذا كانت لهما شخصية قوية مكنتهما في خوض الحرب، ومحاولة تغيير الظروف التي كانوا يعيش فيها الأهالي، وهذه الهوية الفردية التي كانا يمتلكانها لم تبعدهما عن المجتمع والدفاع عنه في أصعب ظروفه، رغم أنهما يمتلكان كل الإمكانات التي تساعدهما على الانخراط في المجتمع الفرنسي، إلا أن عزة نفسيهما كانت أقوى من أي إغراء، ومن أجل هذا لبوا نداء الوطن وأكدوا قوة الشخصية التي يمتلكونها، وأكدوا هويتهما الوطنية والتي هي فوق كل اعتبار.

5. الإقصاء في رواية أنا وحاييم:

تعرض المجتمع الجزائري في فترة الاستعمار الفرنسي لأشد أنواع الإقصاء، ولم يسلم من هذه السياسية أي أحد من الجزائريين صغيرا كان أم كبيرا، متعلما أو غير متعلم، وكانت عملية الإقصاء التي مارسها المستعمر مقصودة، فكان كل مواطن جزائري يصنف ضمن

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص137.

خانة الأنديجان والتي كانت تطلق على كل الأهالي، ولم يسلم منها أي شخص " وحاييم ذاته في ملامحه في هيئته وحتى لكنته برغم من فرنسيته المتقنة لم يكن هو أيضا مستثنى"[1]، ولم يكن الإنسان الجزائري مقصيا معنويا وحسب، أي الإقصاء اللفظي فقط، بل في كل أطوار حياته، نظرا لسياسة المستعمر التي تحرص على إقصائه وإبقائه ضمن خانة الأنديجان.

ونظرا لأهمية المتعلم في المجتمع، ولإدراك المستعمر أن المتعلم يستطيع بوعيه للأمور أن يساهم في التغيير وتعبئة الشعب لذلك، لهذا سعى المستعمر الفرنسي جاهدا في إقصاء الجزائري تعليميا وتصعيب السبل المؤدية إلى ذلك، ولم ينجو من هذا الإقصاء المستهدف إلا القلة القليلة، والذين تعلموا في هذه الفترة يعتبرون من المحظوظين وهذا ما وضحه الصادق في إحدى الاجتماعات " لذلك نعتبر أنفسنا نحن ثلاثتنا من بين الناجحين من مقصلة الإقصاء ! أجل. إنها مقصلة حقيقية تقطع أيضا حبل المعرفة عن الأهالي ليظلوا في الدرجة الدنيا التي رتبتها لهم الإدارة الاستعمارية "[2]، ولهذا كان المتعلم يحظى باهتمام كبير من طرف الأهالي نظرا للأهمية الكبيرة التي يمتلكها، ولأن القلة فقط من ساعفهم الحظ في أن يتعلموا نظرا لسياسة التجهيل التي كانت تتبعها فرنسا.

رغم أن المستعمر احتل هذه الأرض لفترة طويلة، إلا أن كل هذا الزمان الطويل لم يشفع للجزائريين فنجد " تسعة ملايين من الأهالي لم تخرج، من أصولهم، هذه الجامعة منذ تأسيسها قبل حوالي نصف قرن إلى اليوم، سوى مائة وستين طبيبا، وصيدليا وسبعين أستاذا في التعليم الثانوي، وخمسة وعشرين مهندسا، وثلاثمائة وخمسين محاميا "[3]، ويتضح لنا من

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص23.

[2]– المصدر نفسه، ص84.

[3]– المصدر نفسه، ص85.

هذه الأرقام ذلك الإجحاف الموجود اتجاه الأهالي وتلك السياسة الظلامية التي انتهجها المستعمر الفرنسي الذي كان يسن قوانين تعجيزية بغية تصعيب التعليم على الجزائريين.

ومن آثار سياسة الإقصاء التي انتهجها المستعمر الفرنسي اتجاه الجزائريين بروز نزعة الكراهية اتجاه الفرنسيين وخاصة أن الجزائري هو ابن هذه الأرض، ونتيجة هذا الإقصاء اندلعت حرب دامت سبع سنوات من أجل أن يعيش الجزائري في كرامة ومن أجل القضاء على كل صفات العنصرية الموجودة لدى المستعمر الفرنسي.

6. الشعور بالاغتراب في رواية "أنا وحاييم":

نظرا للظروف التي يعيشها الإنسان المعاصر ونظرا للتطورات المختلفة التي جعلت منه إنسانا سريعا، كان من الطبيعي أن يشعر الإنسان بالغربة اتجاه هذا العالم، الذي إن غفل عنه ليوم واحد أصبح لا يعرف شيئا عنه نظرا للسرعة التي يسير وفقها هذا العصر.

أما الاغتراب الموجود في رواية "أنا وحاييم" اغتراب يثبت أحقية الجزائري بهذه الأرض، ويثبت هويته، فمنذ الإعلان عن أول طلقة بدأ الأوروبيون يشعرون بالخوف وعدم الأمان وهذا لمعرفتهم أنهم ليسوا من هذه الأرض، وكانوا يتحركون بخوف وعدم اطمئنان لأنهم يعرفون أنهم مستهدفون من طرف الجبهة، وحالة الخوف والرعب هذه تبينت لنا في هذا المقطع " فتخللنا بين الحين وآخر مارين آخرين من الأقدام السوداء والأوروبيين بقبعات يسرعون الخطى ضاغطين رقابهم بين أكتافهم "[1].

ورغم قوة فرنسا عسكريا إلا أن هذا لم يمنع هؤلاء من الشعور بالخوف لإدراكهم الحقيقة الاستعمارية التي جاؤوا من أجلها، ومهما حاول الإنسان إخفاء الحقيقة، إلا أن ذلك الشعور الموجود داخل الإنسان لا يمكن إخفاؤه مهما حصل، ولهذا يتضح أن الشعور بالاغتراب

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص169.

موجود منذ زمن طويل لدى الفرنسيين لكن لم تسنح له الفرصة المناسبة ليطفو إلى مستوى الشعور.

ومع هذه الظروف الأمنية المستجدة أصبح الأوروبيين والأقدام السوداء، وحتى اليهود المجنسين لا يأتمنون بأي أحد حتى من فرنسا كدولة، وكان كل واحد يملك سلاحا ويعيش بخوف ويحمي نفسه بنفسه، وهذا ما يتبين لنا في قول "المردوخ" " مع هذه الظروف الأمنية المستجدة أصبح الواحد منا بحاجة إلى حماية نفسه بنفسه "[1]، ويعد هذا الشعور الذي ولدته الظروف دليل قاطع على أن الآخر غريب لأن من يمتلك هوية هذه الأرض لا يشعر بالاغتراب لمجرد حدوث أي أزمة، وهذا ما يفسر الصبر الكبير الذي كان لدى الجزائريين لأنهم وفقط كانوا أبناء هذه الأرض.

ومن هنا نستنتج أن من يرتبط بالوطن وبهويته لا يتخلى عنها مهما حصل، وهذا بالتحديد ما نستنتجه من الشعب الجزائري خلال فترة الاستعمار، فرغم طول فترة الاستعمار إلا أنه لم يتخل لأي لحظة عن وطنه، وهذا بالتحديد ما حدث له في فترة العشرية السوداء، فرغم الظروف الصعبة التي عاشها، إلا أنه لم يتخل عن وطنه وبقي متمسكا به حتى رأى النور وعاد كل شيء إلى طبيعته.

وفي الأخير وكحوصلة لما قدمناه، نقول بأن الحبيب السائح ومن خلال هذه الرواية استطاع أن يظهر مفهوما آخر للهوية التي يرتبط صاحبها بالأرض، ويرتبط بالأحداث التي يعيشها وطنه ومجتمعه، وأن ينزع الغطاء عن الآخر الذي لطالما كان مرفوضا في المجتمع الجزائري، كما حاول الحبيب السائح من خلال رواية "أنا وحاييم" إنصاف المجتمع الجزائري ورد الاعتبار له، وأيضا رد الاعتبار للإسلام والمسلمين الذين اتهموا بأنهم لا يتقبلون الآخر،

[1]– الحبيب السائح، أنا وحاييم، ص156.

وأيضا رد الاعتبار لعدة شخصيات ثورية ومناطق من الوطن قيل عنها أنها لم تيشارك في الثورة، ليثبت من هنا أن الثورة شارك فيها الجميع باختلاف معتقداتهم.

ولهذا كان اختيار فترة الثورة بمثابة الورقة الرابحة في هذه الرواية لأنها الفترة المثالية التي استطاعت أن تجمع بين كل أفراد المجتمع وأن تجمع بين كل أقطار الوطن من شرق وغرب وشمال وجنوب ليثبت السائح ارتباط الجزائري بأرضه وليثبت ذلك الإتحاد الموجود بينهم.

خاتـــــــمة

في ختام بحثنا حول قضية الهوية والتاريخ، في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح توصلنا إلى مجموعة من النتائج غير النهائية كون البحث في عالم "أنا وحاييم" يظل منفتحا وقابلا لعدة تأويلات، خاصة إذا عرفنا أن قضية الهوية والتاريخ من القضايا الشائكة التي تتأقلم مع تأويلات عدة ووجهات نظر كثيرة في البلدان العربية بصفة عامة، والجزائر بصفة خاصة، وهذا نظرا للتعدد الثقافي والإيديولوجي الموجود في هذه البلدان.

تعد الرواية من الفنون الأدبية التي يستعين بها أي باحث أو روائي للكشف على عدة أمور كانت تصنف في خانة الطابوهات، والروائي يجد هذا الفضاء رحبا من أجل طرح أفكاره بكل جرأة ودون خوف، وهذا عن طريق تلك الشخصيات أو الأحداث التي يقدمها، وغالبا ما تكون هذه الأحداث قريبة من الواقع المعاش.

توصلنا في هذا البحث إلى أن الحبيب السائح يكثر من استخدام التاريخ، وخاصة التاريخ الثوري، وهذا في أغلب رواياته ولم يقتصر الأمر على رواية "أنا وحاييم" فقط، وهذا من أجل عرض تاريخ آخر لم يكن يعرف لدى العامة والذي كان مستعصيا أو ممنوعا على المؤرخين. ولكن هذا التاريخ غالبا ما يكون ذا حلة جمالية ويقدم للفن الأدبي خدمة جليلة.

يبقى مفهوم الهوية من المفاهيم الشائكة التي يصعب التحكم فيها نظرا لقبولها عدة مفاهيم، ونظرا لتجزئها الدائم، ويبقى حصرها في مفهوم واحد غاية في الصعوبة، وغالبا ما يخلق نزاعات داخلية بين الشعب الواحد، ولهذا تبقى قضية الهوية من الأمور الحساسة داخل المجتمعات.

أنتجت الظروف الجديدة للإنسان، خاصة في فترة الحداثة وما بعدها، هوية متشظية، وظهرت هويات جديدة تدافع عن مبادئها وأفكارها بكل حرية، والهوية التي كانت ترتبط بالمجموعة العرقية قد انحلت، مع هذه الظروف التي طرأت على الإنسان، فظهرت الهويات الفردية، وهويات أخرى متعددة. وقد ساهمت الآداب المختلفة في التعريف بهذه الهويات،

خاصة تلك التي تعاني من الظروف القاسية والضغوطات السياسية، كما ساعدتها على ظهورها ونشر أفكارها.

حاول الحبيب السائح في رواية "أنا وحاييم" إعادة الاعتبار لليهود الذين سكنوا الجزائر، والذين يعدون جزءا من هذه الأرض، كما سعى من خلال هذه العمل الروائي إلى الكشف عن بعض الحقائق التاريخية.

استخلصنا في هذا العمل أن الحبيب السائح، كبقية الروائيين الجزائريين الذين أصيبوا بالدهشة في فترة التسعينات، والتي سال فيها دماء الجزائريين، بكل أطيافهم وأعراقهم، عاد إلى فترة الثورة من أجل إظهار التضامن والتلاحم الموجود بين أفراد هذا الوطن باختلاف أطيافهم وأعراقهم.

لم يقتصر الحبيب السائح في هذه الرواية، على ردّ الاعتبار لليهود فقط، بل حاول ردّ الاعتبار للجماعات الشيوعية في الجزائر التي أصبحت مهمشة بعد الاستقلال، وأيضا ردّ الاعتبار للمرأة الجزائرية التي بدورها ناضلت كما ناضل الرجل.

أعطى لنا الحبيب السائح في هذه الرواية مفهوما آخر للهوية بجعلها ترتبط بالشعور الذي يولد مع الإنسان والذي يكتسبه مباشرة بعد الولادة، كالشعور الذي كان في "أرسلان وحاييم" ومدى تعلقهم بهذه الأرض.

استعمل الحبيب السائح فترة الثورة من أجل أن يثبت أن الجزائر متعددة الطوائف والعقائد، وبيّن من خلال ذلك أن الجزائريين رغم تعددهم الطائفي والعقائدي، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الإتحاد ضد العدو الواحد، وهو المستعمر الفرنسي، وبهذه المشاركة لكل الطوائف أثبت السائح أحقية كل هذه الطوائف بهذه الأرض.

قائمـــــــــة المصادر والمراجع

1. المصادر:

السائح الحبيب، أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 20018

2. المراجع العربية:

- إبراهيم عبد الله ، المحاورات السردية، منشورات الاختلاف، الرباط، ط1، 2011.

- إسماعيل أحمد حسن سميح ، اليهود في المغرب العربي والحركة الصهيونية في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2016.

- الإبراهيمي أحمد طالب، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ج5، 1997.

- المسكين فتحي، الهوية والحرية نحو أنوار جديدة، جداول لنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2011.

- المسكين فتحي، الهوية والزمان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001.

- المسيري عبد الوهاب والتريكي فتحي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق دط، 2003.

- بلكا إلياس وحراز محمد، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتجية، أبو ظبي، ط1، 2004.

- بوعلي ياسين، الثالوث المحرم، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1978.

- حنفي حسن، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2012.

- صلاح صالح، سرد الآخر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003.

- عبد الرحمن طه، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2006.

- عماد عبد الغاني، سوسيولوجيا الهوية، مركز الدرسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2017.

- فيدوح عبد القادر، تأويل المتخيل، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، دط، 2019.

- مرتاض عبد المالك، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1998.

- وتار محمد رياض، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002.

- يقطين سعيد، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2001.

- يقطين سعيد، قضايا الرواية العربية الجديدة، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، ط1، 2012.

- يوسف أمينة، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2015.

3. المراجع المترجمة:

- دوبار كولد، أزمة الهويات، تر، رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت، ط1، 2008.

- لوكاش جورج، نظرية الرواية وتطورها، تر، نزيه الشوقي، دمشق، ط1، 1987.

- ميكشيللي أليكس، الهوية، تر، علي وطفة، دار الرسم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1993.

– إيكو أمبرتو، تأملات في السرد الرروائي، تر، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2015.

– باختين ميخائيل، الخطاب الروائي، تر، محمد برادة، دار الفكر للدارسات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987.

– تورين آلان، نقد الحداثة، تر، أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، دب، دط، 1997.

– شايغن دارويش، هوية بأربعين وجه، تر، حيدر نجف، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط1، 2016.

– هارمليس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، تر، حاتم حميد محسن، دار كيوان للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2016.

4. المجلات والملتقيات:

– بوطاجين السعيد، الحبيب السائح ولغة اللغة، دراسات وإبداعات الملتقى السابع، دار الأمل للنشر، تيزي وزو، دع، 2004

– تحريشي محمد، رحلة الكتابة كتابة الرحلة، نحو أفق مغاربية، دراسات وإبداعات الملتقى السابع، دار الأمل للنشر، تيزي وزو، دع، 2004.

– حوار الحبيب السائح لحميد عبد القادر، الرواية أهم تغذية للذاكرة وأنجع وسيلة لمقاومة النسيان، جريدة الخبر، الجزائر،ع، 8654، 2017.

– ناصر سهام، أبو شنب رشا، مفهوم التجريب في الرواية، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، مج 36، ع، 5، 2014.

5. المواقع الإلكترونية:

- إبراهيم فريدة، تمثلات الهوية في رواية "أنا وحاييم" للجزائري الحبيب السائح، العربي، 2020، http :s//www.alraby.com
- الأعرج واسيني، حاييم أوسيرة اليهودي الطيب، القدس العربي، 2018، https://www.alqds.com.
- الحاج يزن، الحبيب السائح: زمن الأدب التاريخي، الأخبار، 2015، https://alkhbar.com.
- الحبيب السائح لا أكتب الرواية التاريخية، مسابقة كترا للرواية والفن التشكيلي، 2017، https://www.kataranoveles.com
- الرفاعي مصطفى صادق، اللغة والهوية، خيمة، https://www.khayma.com
- العطية عبد الله بن خليفة، الفلاش باك، الراية، https://www.raya.com
- بحري محمد الأمين، تمثيل التاريخ في الرواية الجزائرية المعاصرة، المجلة الثقافية الجزائرية، 2017، https://www.thakafamag.com.
- بشير عبد العالي، انتظام العاملي في رواية "زمن النمرود" للحبيب السائح، جامعة تلمسان، http://www.benhdouga.com.
- بلعلى آمنة، زحام الأنساق في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح، كلمات، http://kalimates.com
- بلعلى آمنة، فلسفة الكتابة لدى الحبيب السائح، فني- زد، 2018، https://www.fenni-dz.net
- بن عيده جيلالي، ضمير المتكلم والرؤى السردية في ... " الموت في وهران"، الجزائر نيوز، 2013، https://www.vitaminedz.com
- بوطاجين السعيد، الأشكال السردية عند الحبيب السائح ذلك الحنين: اللغة المسرودة، عبد الحميد بن هدوقة، https://www.benhedouga.com
- بوعزة عامر، المسلمون واليهود في المخيال السردي، ليدرز، 2020، https://www.leders.com

- بوكرش محمد، محراب التشكيل، الروائي الجزائري الحبيب السائح لعكاظ: حر في اختياراتي ... ومتحرر ضرورات النشر، 2016، http://www.okaz.com.

- تحريشي محمد، رحلة الكتابة –كتابة الرحلة نحو أفق كتابة مغاربية، عبد الحميد بن هدوقة، https://www.benhedouga.com

- حمداوي جميل، الهوامش في الخطاب الروائي العربي، أهلى منتدى، 2007، https://www.alolymp.niceboard.com

- خطيبي سعيد، الحبيب السائح: " زمن النمرود" الجزائري يحلم بالدولة الحديثة، الأخبار، 2011، https://alkhbar.com.

- زمال أبو بكر، الحبيب السائح، الصحراء جنة الكلمات، الجديد، 2020، https://www.aljadeedngazine.com

- شوار الخير، الحبيب السائح: الرواية تجهر بما يسره الناس، الجزيرة نت، 2015، https://www.aljazeera.net

- كه يلان محمد، أنا وحاييم مساءلة الثورة روائيا، meo، meo.https//middle-easte-online.com

- ندا محمد سمير، أنا وحاييم، وثيقة إنسانية عن الجزائر الثورة، وديوس كوم، https//:www.mohamad samir nada.wordopress.com

فهرس الموضـــوعات

مقدمة 6

الفصل الأول:

السـرد والهويـة

المبحث الأول: تقنيات السرد عند الحبيب السائح 11

1. التجريب في الكتابة السردية عند الحبيب السائح 12

1.1. توظيف التراث 14

1.1.1. التراث الديني 14

2.1.1. التراث الشعبي 15

2.1. توظيف التاريخ 15

3.1. المسكوت عنه 17

4.1. الدين 17

5.1. الجنس 20

6.1. السياسة 22

2. الكتابة السردية عند الحبيب السائح 24

1.2. اللغة 29

2.2. السرد بضمير المتكلم "أنا" 31

3.2. حضور الفنون الأدبية في النصوص الروائية للسائح 33

4.2. الهوامش 33

5.2. تقنية المشاهد الصور والمعالم الأثرية 34

6.2. تقنية الوصف 35

7.2. تقسيم الأعمال الروائية إلى فصول 36

8.2. الاستذكار والاسترجاع 36

9.2. الشخصيات 37
10.2. تقنية المنولوج 38
3. التاريخ في أعمال الحبيب السائح 38
المبحث الثاني: مفهوم الهوية بين التحديد واللاتحديد 41
1. مفهوم الهوية 42
2. منظور الهوية قبل الحداثة 44
1.2. الهوية الثقافية في المجتمعات التقليدية 45
3. الحداثة والهوية 48
1.3. مفهوم الحداثة 49
2.3. الوطن والحداثة 50
3.3. الهوية الثقافية في ظل الحداثة 52
4.3. اللغة في ظل الحداثة 55
5.3. الدين في ظل الحداثة 57
4. الهوية الجماعية والهوية الفردية 58
1.4. الهوية الجماعية 59
2.4. الهوية الفردية 61
5. الأداب والهوية 63
6. الإقصاء والإرغام 66
7. الاغتراب 68

الفصل الثاني:

التّاريخ وحدّ الهوية في "أنا وحاييم"

المبحث الأول: التاريخ في رواية أنا وحاييم 73

1. قصة اليهودي حاييم والأنساق المضمرة 74
1.1. ردّ الاعتبار لليهود الذين سكنوا الجزائر 74
2.1. استعادة الذاكرة المضادة أو إعادة كتابة التاريخ 75
1.2.1. ردّ الاعتبار للفئات المهمشة 75
2.2.1. الإشارة إلى أخطاء جبهة التحرير الوطني 79
3.2.1. أدبية الثورة 82
2. تاريخ اليهود ومدى تأثيرهم في الجزائر 84
1.2. موقف اليهود من الاحتلال الفرنسي للجزائر 86
2.2. تركيبة يهود الجزائر 88
1.2.2. يهود السفارديم 88
2.2.2. يهود الاشكانز 89
3.2. أثر اليهود في الجزائر 89
3. الإشادة بدور المرأة 91
4. الجدة رمز التاريخ والذاكرة الحقيقية 93
5. التحدي 94
المبحث الثاني: الهوية في رواية أنا وحاييم 97
1. تجلي عناصر الهوية في رواية "أنا و حاييم 98
2. التشابه الثقافي في رواية أنا وحاييم 100
3. الحداثة في رواية أنا وحاييم 103
1.3. الوطن في رواية أنا وحاييم 107
2.3. الإنسان المثقف في رواية "أنا وحاييم 110
3.3. اللغة في رواية أنا و حاييم 113

4.3. التعايش الديني في رواية أنا حاييم 116
4. الجماعة والفرد في رواية أنا وحاييم 120
1.4. الهوية الجماعية في رواية أنا وحاييم 120
2.4. الهوية الفردية في رواية "أنا وحاييم 123
5. الإقصاء في رواية أنا وحاييم 125
6. الشعور بالاغتراب في رواية "أنا وحاييم 127
خاتمة 130
قائمة المصادر والمراجع 133
فهرس الموضوعات..... 139

ملخص البحث:

تطرقنا في هذا البحث لعدة مسائل جوهرية، تتعلق أساسا بموضوع الهوية والتاريخ، الذي حاول الحبيب السائح معالجته في روايته الموسومة "أنا وحاييم"، بسبب أن الهوية في هذا العمل الروائي تمتزج مع التاريخ امتزاجا كبيرا وتتداخل معه تداخلا صارخا، كان لابد علينا أن نتتبع التاريخ، فلا هوية دون تاريخ يثبت وجودها وتأصلها في أرض ما.

وعلى هذا الأساس كان لزاما علينا عرض تاريخ اليهود في الجزائر، ومدى استجابتهم للثورة الجزائرية، ومن هنا استخلصنا أن اختيار الحبيب السائح لفترة الثورة لم يكن عبثا أو صدفة، بل اختيار حاسم ودقيق ليثبت أن الجزائر متنوعة ومتعددة الهويات، والتعايش بين أهل هذا البلد كان منذ زمن طويل، وليس وليد اليوم، والجزائر بلد يتسع لكل الطوائف ولكل الاختلافات الممكنة في هذه الحياة.

رغم أن الموضوع الرئيسي للبحث هو "الهوية والتاريخ"، إلا أن هذا لم يمنعنا من عرض بعض الأعمال السردية للحبيب السائح وتتبعها، ومحاولة كشف وعرض الميزات والاختلافات الموجودة بين كل عمل من أعمال الحبيب السائح.

وعلى ضوء كل ما سبق، كان الأساس في البحث هو إثبات التعايش الموجود بين مختلف أطياف المجتمع الجزائري، وهذا عن طريق تتبع أحداث الرواية، فالمبدأ الأول في هذا البحث هو العيش في سلام رغم كل الاختلافات.

الكلمات المفتاحية:

الهوية، التاريخ، السرد، الحبيب السائح، رواية أنا وحاييم، اليهود، حاييم، التعايش، السلم، الثورة.